Mngool.com

أجاثا كريستي

الليل الطويل

تعريب
عمر عبد العزيز أمين

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

الليل الطويل

الفصل الاول

في نهايتي بدايتي .. طالما سمعت الناس يقولون هذه الجملة ، وهي جملة حسنة الوقع على الأذن ، ولكنني لا أدري ماذا تعني حقاً .. فهل هناك نقطة ما يمكن للمرء أن يضع إصبعه عليهــا ويقول : « لقد بدأ كل شيء في ذلك اليوم ، وفي مثل هذا الوقت ، وفي ذلك المكان ، وبذلك الحدث بالذات » ؟

لعل قصتي قد بدأت حين رأيت إعلان البيع معلقاً على جدار مطعم « جورج ودراغون » يعلن عن بيع قصر « الأبراج » العتيد بالمزاد بما يتبعه من أراض وأملاك .

لم يكن لدي ما أفعله على وجه الخصوص في ذلك اليوم ، وكنت أتجول في الشارع الرئيسي لمدينة كنجستون بيشوب ، ولاحظت عندئذ إعلان البيع . ولا أعرف لماذا ؟ ولكن لعلها لعبة قذرة من القدر ، ولعله الحظ هو الذي أراد ان يبتسم لي .. مهما يكن فعليك أنت أيها القارىء

العزيز ، تقدير ذلك .

ولكن من يعرف ؟ لعلك تقدر أن كل شيء قد بدأ في اللحظة التي التقيت فيها بسانتونيكس ، أو أثناء الأحاديث التي تبـادلناها معاً ، فإنني أستطيع ان أغمض عيني وأن أستعرض في ذهني وجنتيــه المتضرجتين وعينيه المتألقتين ، والحركات القوية التي تصدر من يديه الرقيقتين اللتين تخططان وترسمان رسوم المباني والعقارات ، والتي صممت بيتـاً معيناً هو آية من الفن والجمال .. بيتاً أصبح فيما بعد ملكي أنا بالذات .

ولكن إذا كانت هذه قصة حب ، وهي حقاً قصة حب ، وإني لأقسم على ذلك فلماذا لا أبدأ إذاً بتلك اللحظة التي رأيت فيها ايللي لأول مرة ، واقفة في ظل شجرة من أشجار الشوح في أراضي الغجر ؟

أراضي الغجر !

في تلك اللحظة القيت فيها بغير اهتمام ، سؤالاً على رجل من الأهالي كان يشذب سياجاً من النباتات على مقربة .

– ما شكل هذا البيت المدعو « بالأبراج » ؟

وما زلت أرى وجه ذلك الرجل الغريب وهو ينظر إلي ويقول :

– إننا لم نعد ندعوه بهذا الاسم .. فهو اسم لا يدل عليه .

وبصق مستهجناً وقال :

– إن الذين كانوا يقيمون فيه منذ أعوام طويـلة هم الذين كانوا يدعونه « بقصر الأبراج » .

وبصق ثانية .

وسألته عندئذ بما يدعونه الآن ، فحول عينيه عني كما يفعل أهل الريف حين لا يوجهون اليك الحديث مباشرة ، وينظرون اليك من فوق كتفيك ، كما لو كانوا يرون شيئاً لا تراه أنت وقال :

– إننا ندعوه هنا بأراضي الغجر .

– ولماذا تدعونه كذلك ؟

– إن لذلك قصة لا أعرف منشأها ، فإن بعضهم يقول شيئاً ، ولا يلبث البعض الآخر ان يردد ما يقول الأولون ، وهكذا ..

ثم استطرد يقول :

– ومهما يكن من أمر فإن الحوادث تقع دائماً في هذا المكان .

– تعني حوادث السيارات ؟

– بل كل نوع من الحوادث .. وكثيراً ما تقع حوادث السيارات في هذه السيارات في هذه الأيام بالذات . هذا مكان بغيض كما ترى ..

– حسناً .. إذا كان هذا المكان مشؤوماً حقاً فإنني أدرك الآن انه لا بد من وقوع بعض الحوادث فيه .

– إن المجلس القروي وضع علامة تدل على الخطر ، ولكنها لم تأت بأية نتيجة لأن الحوادث لم تنقطع

– ولماذا الغجر بالذات ؟

تحولت عيناه بعيداً عني مرة أخرى وأجاب بغموض :

– إن لذلك قصة .. كانت الأرض ملكاً للغجر فيما سبق ، لكنهم أبعدوا عنها رغماً عنهم فألقوا عليها لعنتهم .

ضحكت فقال :

– لك أن تضحكي ، ولكن هناك أماكن حلت بها اللعنة حقاً . وأنتم معشر أهالي المدن لا تفهمون شيئاً في هذه الناحية ، ومهما يكن ، فهناك أماكن ملعونة ، وهناك لعنة على هذه الأرض ، فإن بعضهم لقوا حتفهم هنا في المحجر وهم يستخرجون الأحجار للبناء .. فجوردي العجوز زلت قدمه ووقع من الحافة ودقت عنقه .

– لعله كان سكراناً ؟

– هذا جائز ، فقد كان يحب الشراب ، ولكن هناك سكارى كثيرون

يقعون ولا يصيبهم شيء . أما جوردي فقد دقت عنقه على الفور .

وأشار إلى الهضبة التي تكسوها الأشجار واستطرد :

– هناك في أراضي الفجر .

نعم ، أعتقد ان القصة بدأت هكذا ، على انني لم أعر ذلك أية أهمية عندئذ ، ولكني أذكره الآن ، وهذا كل شيء ، ولا أعرف إذا كنت قد سألت الرجل في ذلك الوقت أو فيما بعد ، إذا كان لا يزال هناك بعض الفجر وقد أجابني على كل حال فقال انه لم يعد يوجد منهم الكثيرون ، فالبوليس لا يفتأ يطاردهم ، فسألته :

– ولماذا لا يحب الناس الفجر ؟

– ذلك لأنهم جماعة من اللصوص

ثم حدق في واستطرد :

– لعل دماء الفجر تجري في عروقك ؟

– انني لا أظن ذلك بقدر ما أعلم ، والحق إنني أبدو كما لو كنت غجرياً حقاً . وقد يكون هذا هو السبب الذي استمالني الى اسم أراضي الفجر . وقلت لنفسي وأنا واقف أبتسم أمامه وقد راقني الحديث أن دم الفجر ربما يجري في عروقي .

أراضي الفجر ! إرتقيت الطريق المتعرج الذي يمتد إلى خارج المدينة ، خلال الأشجار الداكنة ، وبلغت أخيراً قمة التل بحيث أصبحت أستطيع رؤية البحر والسفن . كان المنظر رائعاً ، وقلت أحدث نفسي ، كما لا بد ان يفعل كل شخص في مكاني : « إنني أتساءل ماذا يكون الأمر لو أراضي الفجر أصبحت ملكي ؟ » . كان خاطراً سخيفاً طبعاً ، وحين مررت في عودتي بالرجل العجوز الذي يشذب السياج قال لي :

– إذا شئت لقاء بعض الفجر فهناك مسز لي طبعاً . فالميجور أعطاها كوخاً لكي تقيم فيه .

– ومن هو الميجور ؟

فأجاب بدهشة :

– الميجور فيليبوت طبعاً .

وحييت الرجل العجوز ، وتحولت عنه لكي أنصرف حين قال :

– إنها تقيم في الكوخ الأخير في آخر الشارع ولكن ربما لا تجدها في البيت فهي لا تحب البقاء فيه ، فدم الميجر يجري في عروقها .

وهكذا سرت في الشارع وأنا أصفر وأفكر في أراضي الفجر ، وكنت قد نسيت ما قيل لي تقريباً . حين رأيت إمرأة طويلة القامة ، ذات شعر أسود تحدق في من فوق سور الحديقة .

وعرفت على الفور انها مسز لي فتوقفت وخاطبتها قائلاً :

– قيل لي انك قد تستطيعين محادثتي بما تعرفين عن أراضي الفجر .

نظرت إلي من خلال خصلة معقدة من شعرها الأسمر وقالت :

– لا شأن لك بها أيها الفتى . إنس أمرها ، فأنت شاب وسيم ولا خير لك في أراضي الفجر .

– ولكني أرى أنها معروضة للبيع !

– هو ذلك .. فالذي يشتريها لأحمق !

– ومن الذي يحتمل أن يشتريها ؟

– أكثر من شخص لكي يقيم المباني فوقها .. ستباع بثمن بخس كما سترى .

فسألتها في فضول :

– ولماذا تباع بثمن بخس ؟ إنها أرض جميلة ؟

لكنها لم تحر جواباً فعدت أقول :

– لنفرض أن بعضهم اشتراها بثمن بخس فماذا يفعل بها ؟

ضحكت ضحكة خبيثة بغيضة وقالت :

– سيهدمون البيت القديم ويعيدون بناءه من جديد من غير شك. بل لعلهم يبنون عشرين أو ثلاثين بيتاً فوق الأراضي كلها .. ولكن مهما يكن من أمر فاللعنة ستظل باقية !

تجاهلت الجزء الأخير من قولها ، ولم أملك إلا أن أقول :

– سيكون ذلك عاراً .. بل عاراً كبيراً .

– آه .. لا داعي لأن تقلق .. لن يستمتع بها أحـــد لا أولئك الذين سيشترونها ، ولا أولئك الذين سيقيمون المباني فوقها ، سوف تزل الأقدام من فوق السلم ، وسوف يتحطم اللوري بحمولتــه ، وسوف تقع الكتل الخشبيــة وتقتل من تقتل ، وكذلك الأشجار . سوف تقع فجأة أثناء عاصفة هوجاء.. آه .. سوف ترى .. لن يستمتع أحد بأراضي الفجر . من الخير لهم تركها والابتعاد عنها .. سوف ترى .

وأومأت برأسها في قوة ، ثم عادت تقول كما لو كانت تحدث نفسها :

– لن يجنـوا خيراً إذا ما أقبـلوا إلى أراضي الفجر .. لن يجنـوا أي خير .

وإذ ضحكت قالت في حدة :

– لا تضحك أيها الشاب ، فقد يأتي عليك يوم لا ينفعك فيه الضحك .. لا خير هنا أبداً . لا في البيت ولا في الأرض .

– ما الذي حدث للبيت ؟ ولماذا بقي شاغراً كل هذه المدة ؟ لماذا تركوه حتى تداعى هكذا ؟

– إن من كانوا يقيمون فيه قد ماتوا عن آخرهم .

فقلت متملقاً :

– ولكن لعلك تستطيعين أن تذكري لي قصته فأنت تعرفين كل شيء عنه .

– إنني لا أحب ان أتكلم عن أراضي الفجر !

ثم خفتت من صوتها حتى أصبح شبيهاً بصوت المتسول حـــين يطلب

إحسانا ، واستطردت .

– سأقرأ لك طالعك الآن إذا أردت أيها الشاب الوسيم . ضع قطعة من الفضة في يدي فأقرأ لك حظك .. فأنت واحد من هؤلاء الذين ستصيبهم الشهرة ذات يوم .

– إنني لا أؤمن بهذه الخرافات ، وليس معي أية قطعة من الفضة على كل حال .

ازدادت مني دنواً وأردفت تقول متملقة :

– ستة بنسات ، ست بنسات فقط . سأقرأ طالعك بستة بنسات فقط !.

أخرجت من جيبي قطعة بست بنسات ، ولم يكن ذلك لأنني أؤمن بهذه الخرافات الحمقاء ، ولكن لأنني احببت طريقتها في الاحتيال على الرغم من أنها كانت واضحة كل الوضوح .

واختطفت المرأة العجوز القطعة مني وهي تقول :

– والآن أعطني يدك . بل يديك الاثنتين .

وأخذت يدي بين أصابعها ونظرت إلى راحتي المفتوحتين ملياً ، ولزمت الصمت دقيقة او دقيقتين وهي تحدق فيهما ثم أفلتتهما فجأة ، بل حري بي أن أقول دفعتهما بعيداً عنها ، وتراجعت خطوة إلى الخلف وقالت في صوت أجش :

– من الخير لك ان تبتعد عن أراضي الغجر فوراً ، وألا تعود اليها أبداً هذه نصيحتي اليك فاستمع اليها واذهب ولا تعد

– ولم لا ؟. لماذا لا أعود ؟

– لأنك إذا عدت فستعود إلى الأحزان والأشجان ، وقد يحف بك الخطر .

– هناك متاعب .. متاعب سوداء في انتظارك .. إنس هذا المكان إلى

الأبد ولا تمد اليه .

– حسناً ، إني ما كنت ..

لكنها تحولت عني وأولتني ظهرها ، وأسرعت إلى كوخها ، فدخلت وصفقت الباب خلفها .

نظرت مرة أخرى إلى الإعلان الخاص بالمزاد ، بل انني وعيت تاريخ البيع في ذهني ، لم أكن قد حضرت في حياتي أى مزاد ، ولكنني قررت حضور هذا المزاد بالذات ، لكي أرى من ذاك الذي سيشتري « الأبراج » ويصبح المالك لأراضي الفجر .. نعم ، هكذا بدأت القصة حقاً ، وخطر بذهني شيء غريب .. ماذا لو انني حضرت هذا المزاد ، وتظاهرت بأنني الرجل الذى يزايد ضـــد المشترين المحليين ؟. إن خيبة أملهم في شرائها بثمن بخس لتكون كبيرة عندئذ وماذا لو أذهب إلى رودلف سانتونيكس وأقول له : « إبن لي قصراً ، فإنني اشـــتريت الموقع لك .. فسوف أجد فتاة عندئذ .. فتاة اتخذها رفيقة لي ، نعيش فيه أنا وهي سعيدين إلى الأبد »

كانت تراودني أحياناً أحلام من هذا النوع ، وهي أحلام لن تتحقق طبعاً . ولكنها كانت أحلاماً حلوة .. هذا ما حسبت في ذلك الوقت .. حلوة .. حلوة ! . يا إلهي ! . لو انني كنت أعلم ! .

الفصل الثاني

كانت الصدفة وحدها هي التي دفعتني إلى الذهاب إلى أراضي الفجر في ذلك اليوم ، فقد كنت أسوق سيـارة أجرة ركبها زوجان إلى خارج لندن لحضور مزاد .. ولم يكن ذاك المزاد بخصوص بيع بيت او عقار إنما بخصوص بيع مفروشات ومنقولات . وكان البيت الذي تباع منقولاته كبيراً يقع في ضواحي المدينة ، وفي أسوإ ضواحيها بالذات .

كنت في الثانية والعشرين من العمر في ذلك الوقت ، وكذلك قد جمعت لنفسي حصيلة كبيرة من مختلف المعلومات ، فكنت أعرف الشيء الكثير عن السيارات ، وكلاماً يتعلق بها . كنت والحق يقال ميكانيكياً بارعاً ، وسائقاً لا يبارى .

لم أقض ابداً مدة طويلة في مهنة واحدة .. لا احب الاستقرار ، أهوى الذهاب إلى كل مكان ورؤية كل شيء وعمل كل شيء .. اريد ان اعثر على شيء، نعم هو ذلك ، اريد العثور على شيء ما .

الفصل الثالث

لم اذكر الكثير عن سانتونيكس حتى الآن ، ولكن مما لا شك فيه انكم قد حدستم انه مهندس معماري . ولم يسبق لي ان تعاملت مع أحد المهندسين المعماريين على الرغم من انني أعرف القليل عن فن البناء ، ولكني التقيت بسانتونيكس في ذلك الوقت الذي كنت احترف فيه مهنة قيادة السيارات وكان عملي يستدعي السفر إلى الخارج أغلب الأحيان .

ومهما يكن ، فإنني أعود الان إلى قصتي فأقول انني اعتدت ان أقود رجلاً مسناً إلى الريفييرا .. كان يبني له بيتاً هناك .. وكان يذهب من وقت لاخر ليرى سير العمل فيه ، وكان سانتونيكس هو المهندس المعماري الذي يبنيه له .

كان ذلك الرجل المسن يغلي من الغضب ، وأذكر انه بمجرد أن وصل ورأى سير العمل اعترته نوبة بحيث خيل لي انه سيصاب بأزمة قلبية ، وصاح يقول :

– إنك لم تنفذ تعليماتي .. انك انفقت الكثير من المال .. بل اكثر بكثير من المتوقع ، ونحن لم نتفق على هذا .. ان هذا البيت سيكلفني ما لا طاقة لي به .

– انت على حق ، ولكن المال خلق كي ينفق .

– ولكني لن أعطيك بنساً واحداً آخر .. عليك ان تلزم الحدود التي اتفقنا عليها ، هل تفهم ؟

– لن تحصل على البيت الذى تتمناه في هذه الحالة .. إنني أعرف مـاذا تريد ؟. إن البيت الذى أبنيه سيكون كما تتمنى تماماً ، وإنني واثق مما أقول كما انك واثق مما اقول . لا تصدع رأسي بمحاضراتك في التوفير والاقتصاد انك تتمنى بيتاً فريداً في نوعه ، وسيكون لك ما تريد . سوف تفتخر بـه بين زملائك ، وسوف يغبطونك عليه .. إنني لا اشيد البيوت لكل من هب ودب كما قلت لك . ان بيتك هذا سيكون بيتاً فخماً رائعاً لا يقدر بمال ، ولا يقارن بأي بيت آخر .

– ولكن الأمر شاق وعسير ..

– أوه .. كلا .. إن مشكلتك هي انك لا تعرف ماذا تريد ، او على الأقل هذا ما قد يتبادر لمن يسمعك . ولكنك تعرف ماذا تريد حقـاً ، غير انك لا تستطيع التحديد .. إن لك ذوقاً رفيعـــاً وان كنت لم تعبر عنه صراحة ، ودوري يفرض علي ان اعطيك البيت الذى ينسجم مع ذوقك هذا .

ومضينا الى الريفييرا مرة اخرى فيما بعد . وفي تلك المرة كان البيت قد تم بنـاؤه تقريباً ، ولن اصفـه لكم لأنني لن استطيع ذلك كما يجب ، ولكن يكفي ان اقول انه كان بيتاً فريداً في نوعه ، ورائعاً إلى اقصى درجات الروعة .

وقال لي سانتونيكس ذات يوم فجأة :

– انني اقدر ان ابني لك انت الاخر منزلاً كما تعلم ، لأنني اعرف شكل المنزل الذى تتمناه .

هززت رأسي وقلت:

– انا نفسي لا اعرف كيف اتمنى ان يكون .

– لعلك لا تعرف كيف تتمنى ان يكون ، ولكني انا اعرف كيف تريد ان يكون .

ثم اردف يقول :

– مما يؤسف له انك لا تملك المال اللازم لذلك .

– ولن امتلكه في اى يوم من الأيام .

– من يعرف؟. إن من يولد فقيراً لا يبقى فقيراً ، والمال أمره غريب يذهب إلى من يريد .

– ولكني لست موهوباً كي أحصل على شيء منه .

– بل قل انك غير طموح بما فيه الكفاية .. إن الطموح لم يستيقظ فيك بعد ، ولكنه راقد في أعماقك.

– أوه أعماقي !

ثم استطردت :

– أوه !. حسنا !. حين يستيقظ هذا الطموح ، وحين أصيب ثروة سآتي اليك عندئذ وأقول لك « إبن لي بيتاً » .

– لا استطيع الانتظار . كلا ، لن استطيع الانتظار ، فإنني لن أعمر طويلا ولن أعيش الا ريثما أبني بيتاً او اثنين .. لا اكثر من ذلك ، ان المرء لا يحب ان يموت شاباً .. ولكن لا بد له من ان يموت احياناً . غير اني اظن ان هذا لا يهم حقاً .

– يجب ان اوقظ الطموح في نفسي سريعاً اذاً .

– كلا .. انك تتمتع بالصحة ، وتحب ان تغب من الحياة ، فلا تغير نهجك .

– اني لن استطيع ذلك حتى اذا حاولت .

الفصل الرابع

لم أنس خطتي للذهاب الى المزاد ، كان لا يزال أمامي ثلاثة أسابيع لذلك، وكان علي ان اقوم برحلتي الى القارة ، إحداهما الى فرنسا والأخرى الى المانيا وتأزمت الأمور حين بلغنا هامبورج ، فقد شعرت بمقت شديد للرجل الذي كنت أنقله هو وزوجته ، كانا وقحين ، دميمين ، متهورين ، جعلاني أشعر بأنني لن استطيع الاستمرار ، في حيـاة التملق والمداهنة ، التي كنت أحيـاها !.

فلم يكن هناك داع كي اسبب لنفسي مشاكل مع الشركة التي تستخدمني ولهذا اتصلت بالفندق الذي ينزلان به وأبلغتهم بأنني مريض ثم ابرقت الى لندن بنفس الشيء ، وقلت انني قد يحتجزونني في الحجر الصحي ، وان من الأفضل لهم ان يرسلوا سائقا آخر ليحل محلي .

وسأعود الى لندن ، فيما بعد ، وادعي بأنني كنت مريضا جـداً ، على انني لم اكن اظن انني سأفعـل هذا ، فقد سئمت مهنة قيـادة السيارات .

* * *

كانت ثورتي هذه نقطة تحول في حياتي فبسببها وبسبب أشياء أخرى ذهبت إلى صالة المزاد في اليوم المضروب .

« ما لم تكن قد بيعت باتفاق خاص » .

كانت هذه الجملة قد أضيفت إلى لافتة البيع ، ولكن الأراضي لم تكن قد بيعت بعد .. وكنت شديد الانفعال ، بحيث لم أدر ما كنت أفعل .

وكما سبق لي القول لم أحضر مزاداً عاماً لبيع أرض أو عقار قبل ذلك وتصورت أن الأمر سيكون مثيراً إلى حد كبير ، ولكن لم يكن فيه أي إثارة على الاطلاق .

كانت الجلسة هادئة إلى أقصى حدود الهدوء ، ولم يحضرها غير ستة أو سبعة أشخاص.

وكان الدلال لا يشبه في شيء الدلالين الذين رأيتهم قبل ذلك يباشرون مزادات الاثاثات والمفروشات فهؤلاء قوم ذو أصوات مرحة صاخبة يحبون الدعابة . .

أما ذلك الذي أعنيه ، فقد راح يتكلم بصوت هادىء يكاد لا يسمع ممتدحاً العقار ، واصفاً المنطقة ومساحتها ، ثم أعلن بدء البيع .

وبدأ أحدهم المزاد بمبلغ خمسة آلاف جنيه .

فابتسم الدلال ابتسامة ساخرة تنطق بالأعياء ، كما لو كان قد سمع دعابة أو مزحة غير مليحة .. وأبدى بعض الملاحظات ثم بدأ المزاد من جديد .

ولكن في صوت كئيب أعلن الدلال مرة أخرى بانتهاء المزاد ، لأن العروض التي قدمت تقل بكثير عن المبلغ الأساسي المطلوب ، ثم الغى البيع .

وقلت أخاطب أحد القرويين الواقفين بجواري :

– كانت جلسة مملة !

فأجابني بقوله :

– كالعادة دائماً .. هل حضرت كثيراً من المزادات ؟

– كلا .. هذه أول مرة .

– لعلك حضرت إذن بدافع الفضول ، فإنك لم تشترك في المزايدة .

أجبت :

– هو ذلك ، أردت أن أرى كيف تجري الأمور .

– حسناً . هكذا المزادات دائماً .. جس النبض لمعرفة هل هناك من يهمه الأمر لا غير ..

نظرت اليه مستفهماً .

فقال :

– هناك ثلاثة يهتمون بذلك على كل حال ، ويذري من هلمنستر ، وهو مقاول يشتغل في البناء ، كما لعلك تعرف . وداكهام وكومب ، وأظنهما يمثلان إحدى شركات ليفربول ، ثم رجل غريب قادم من لندن ، ولكنه يبدو شديد الحذر ، ومما لا شك فيه أن هناك اشخاصاً آخرين غير هؤلاء ، ويقال ان هذه المنطقة ستباع بثمن بخس جداً .

فسألته :

– وهل لسمعتها دخل في ذلك ؟

– اوه ، هل سمعت ما يقال عن منطقة الغجر ؟ إن هذه القصة شائعة في الريف ، وكان يجب على مجلس القرية ان يهتم بهذه الطريق منذ سنوات .. فهو طريق شديد الخطر .

انتهى إذن المزاد ..

ومشيت وحدي ، عابس الأسارير ، محيراً .

واخذتني قدماي على غير وعي مني إلى الطريق الذي يقع بين أشجار

الشوح ، هناك فوق التل ، حيث ينعطف أخيراً ، ويؤدي إلى الأرض البور ..

وهكذا بلغت البقعة التي رأيت فيها ايلمي لأول مرة ، كانت كما سبق لي القول واقفة بجوار شجرة كبيرة من اشجار الشوح .

وكانت تبدو عليها نظرة ، إذا جاز لي أن اقول ، نظرة من لم يكن موجوداً قبل ذلك بلحظة ، وكما لو كانت قد خرجت وتجسدت من أعماق الشجرة نفسها .

كانت ترتدي فستاناً من التويد الأخضر الداكن ، وكان شعرها احمر بلون ورق الخريف ، وكان يشع من كل كيانها شيء كما لو كانت تنظر الي ، وقد افترت شفتاها كما لو كانت قد جفلت لرؤيتي ، وأظن انني قد جفلت انا الآخر واردت ان اقول شيئاً ، ولكني لم أدر ماذا اقول حقاً .

وأخيراً قلت :

- إنني آسف .. لم أشأ ان اخيفك . لم اكن أظن ان هناك احداً هنا .

قالت ، وكان صوتها رقيقاً ناعماً اشبه بصوت الطفلة :

- لا بأس .. انا الأخرى لم اكن اظن ان احداً هنا .

ورددت البصر حولها .

ثم اردفت :

- انه مكان منعزل .

وسرت في اوصالها رعشة خفيفة .

والواقع ان الطقس كان قد تحول واصبح بارداً بعض الشيء بعد الظهر ولكن قد ترجع الرعشة التي تملكتها إلى شيء آخر غير الطقس . ودنوت منها خطوة او خطوتين ثم قلت :

- إن المكان يبدو مخيفاً بعض الشيء .. اعني منظر البيت وهو اطلال

متداعية هكذا ..

فقالت في تفكير :

- « الأبراج » .. هذا إسمه ، اليس كذلك ؟ ومع ذلك فانني لا ارى فيه اية ابراج .

فقلت :

- اعتقد ان هذا مجرد اسم ، فإن الناس درجت على إطلاق اسماء غريبة على بيوتهم لتضفي عليها اهمية اكبر .

ضحكت قليلا وقالت :

- اظن ذلك ، لعلك تعلم .. ان البيت والأراضي التـــابعة له كانت معروضة للبيع في المزاد اليوم .

- نعم .. وانا عائد لتوي منه .

جفلت وقالت :

- اوه . هل انت مهتم بالمكان ؟

- وماذا افعل ببيت متداع ، مدفون بين أشجار الشوح ، وتحوطه اراض بور ؟

فسألتني :

- هل اشتراه احد ؟

- كلا ، لم يصل المزاد إلى المبلغ المطلوب .

قالت وقد بدا عليها الارتياح :

- اوه .. حسنا .

فسألتها قائلا :

- لعلك لا تريدين شراءه ؟

- كلا .. كلا طبعا !

وبدا عليها الانفعال وهي تنطق بهذه الكلمات ، وترددت عندئذ ، ولكن

لم تلبث ان تدفقت الكلمات من بين شفتي فقلت :

– إذا كنت قد ادعيت انني لا اريد شراءه ، فما ذلك الا لانني لا املك الوسائل لذلك .. ولكني اود لو اشتريه حقـــا .. بل اريد ان اشتريه .. لك ان تضحكي ، ولكن يخامرني احساس بأنني سأكون في هذا البيت ، في بيتي .

– ولكنه اطلال متداعية .

– اوه .. هو ذلك ، ولكنني لا اعني اني اريده على حالته الراهنة ، بل اريد ان ازيل هذه الأطلال ، فالبيت بغيض ، واعتقد انه كان بيتاً كئيباً موحشاً ينبعث منه الحزن والأسى ، ولكن المكان جميل ..

انظري إلى هذه الناحية .. تعالي هنا ، بين هذه الأشجار .. انظري إلى المنظر من مكانك هذا ، خلال التلال والأراضي البور ؟ هل ترين ، تعالي هنا .

واخذتها من ذراعها ومضيت بها إلى بقعة اخرى ، وإذا كنا قـــد تصرفنا على غير ما تتطلبه التقاليد فإنها لم تلحظ ذلك .

ومهما يكن فإني لم امسكها بطريقة منفرة ، وإنما اردت ان اريها مـــا اراه أنا نفسي ، وقلت .

– انظري الى هذه الناحية .. من هنــا ترين الطريق ، فهو ينحدر إلى البحر حيث تبدو الصخور . إن تلك الصخور تخفي مدينـــة مدفونة في الوادى لا نستطيع رؤيتها بسبب التلال والغابات الكثيفة . وإذا أزيلت الغابات ومهد الطريق استطعنا ان نبني في هذا المكان بيتاً جميلاً غير البيت القائم الآن .. بيت رائع يبدو جوهرة حقيقية في هذا الاطار البديع .. بيت يطيب المرء الاقامة فيه .. بيت عظيم ، يبنيه لك مهندس معماری عبقری .

قالت في شيءمن الشك :

– فهل تعرف مهندساً معمارياً عبقرياً ؟
– اعرف واحداً !

ثم رحت احدثها عن سانتونيكس . جلسنا جنبا الى جنب فوق جذع شجرة ورحت اتكلم .. نعم .. تكلمت مع تلك الفتاة الرقيقة التي ظهرت امامي فجأة في ظل شجرة من اشجار الشوح ، والتي لم يسبق لي ان رأيتها قبل اليوم ، واطلعتها على كل ما يعتمل في اعماقي من خواطر وخلجات ، وفعلت ذلك بكل صدق واخلاص ، واختتمت حديثي معها قائلا :

– انها احلام واماني لن تتحقق طبعاً ، وانا واثق من ذلك .. لا يمكن ان تتحقق .. ولكن ضعيها امام ذهنك وفكري فيها كما افكر انا .. سوف نقطع الأشجار في ذلك المكان ، وسوف نزرع مكانها الورود والأزهار الصحراوية الجميلة ، وسوف يأتي صديقي سانتونيكس وسوف يتملكه السعال بما فيه الكفاية ، لأني اعتقد انه مشرف على الموت لفرط ضعفه وهزاله ، ولكنه يستطيع ان يبني لنا ذلك البيت قبل ان يموت .. نعم ، سوف يستطيع ذلك .. يمكنه ان يبني لنا بيتاً يفوق كل البيوت التي بناها حتى اليوم .. انك لا تعرفين روعة البيوت التي يشيدها ، فهو يبنيها للأثرياء فقط ، ولا بد ان يكونوا من الاثرياء ، وان يقدروا الجمال ، نها اشياء يحلم بها الناس ويمكن ان تتحقق .. اشياء رائعة ..

قالت ايللي :

- انني اريد بيتاً كهذا .. انك جعلتني اراه واتمناه ، نعم ، سوف يكون بيتاً جميلا ، رائعا ، تطيب الاقامة فيه .. ان كل ما يتمناه المرء يمكن ان يتحقق .. يمكن للانسان ان يقيم هنا وان يكون حراً من كل قيد ، لا يعبأ بالتقاليد ، ولا بآراء الناس الذين يحملونه على ان يفعل ما لا يريد ، ويحرصون على الا يفعل ما يريد .. اوه .. اني مللت حياتي وسئمت الناس الذين معي ، وسئمت كل شيء .

وهكذا بدأ الأمر معنا ، انا وايللي .. أنا بأحلامي ، وهي بثورتها ضد المعيشة التي تعيشها . وأمسكنا عن الحديث ونظر كل منا الى الآخر ..

وقالت : ما اسمك ؟

– مايك روجرز .. مايكل روجرز .. وانت ما اسمك ؟

– فينيللا ..

وترددت قليلا ..

ثم أردفت :

– فينيللا جودمان.

ونظرت الي وعلى وجهها امارات الضيق والجذع .

ولم يكن هنا ما يدل على ان حديثنا هذا سيتطرق الى ناحيـة اخرى ، وأخذ كل منا ينظر الى الآخر .. أراد كل منا أن يضرب موعداً للآخر للقاء من جديد ، ولكننا في تلك اللحظة بالذات لم ندر كيف نعبر عما نريد .

الفصل الخامس

حسناً .. هكذا بدا الأمر بيني وبين إيللي .. والواقع أن العلاقة لم تتطور بيننا سريعاً ، وأعتقد ان ذلك يرجع إلى ان كلا منا كانت له أسراره الخاصة .. كل منا كانت لديه أشياء يريد إخفاءها عن الآخر ، ولهذا لم نتبادل الكثير عن شؤوننا الخاصة كما كان يجب ان نفعل ، وبقينا شديدي الحرص والحذر كما لو ان هناك جداراً فاصلا بيننا، ولم نستطع ان نتكلم على المكشوف وأن يسأل كل منا الآخر :

– متى أراك ثانية ؟ وأين يمكن ان نلتقي ؟ وأين نقيم ؟

كان كل منا يخشى ان يسأل الآخر لأنه كان يتوقع ان يسأله عندئذ عن نفس الشيء .

بدت فينيللا وجلة مترددة حين ذكرت لي اسمها إلى حد انني اعتقدت لمجرد لحظة خاطفة انه ليس اسمها الحقيقي .. بل انني اعتقد إلى حد ما انه اسم زائف ولكني أدركت طبعاً ، ان هذا محال لأنني ذكرت لها اسمي الحقيقي أنا نفسي .

ولم نعرف كيف نفترق في ذلك اليوم ، واستولى علينا الارتباك .

كان الطقس قد تغير وأصبح يميل إلى البرودة ، وأراد كل منا مغادرة المكان ، ولكننا لم ندر كيف نفعل لفرط ارتباكنا . وحاولت ان أنقذ

الموقف فقلت :

– هل تقيمين في هذه الأنحاء ؟

أجابتني بأنها تقيم في ماركيت شارويل ، وهي قرية صغيرة تقع على مقربة وأعلم ان بها فندقاً من ثلاثة أدوار ، وحدست انها نزيلة به ، وسألتني تقول في ارتباك مثلي :

– وأنت ؟. هل تقيم هنا ؟

– كلا .. إنني لا أقيم هنا .. إنما أقبلت اليوم لحضور المزاد .

ثم خيم الصمت بيننا من جديد . كان صمتاً يسوده الارتباك .

وسرت ببدنها رعشة خفيفة ، فقد هبت نسمة باردة في تلك اللحظة ، وقلت :

– أظن من الأوفق ان نتمشى قليلا لكي يسري الدفء في أوصالنا. ألديك.. هل معك سيارة ؟ أم ستعودين بالحافلة أو القطار ؟

أجابتني بأنها تركت سيارتها في القرية وأردفت تقول :

– ولكنني سأكون على ما يرام .

بدا عليها الانفعال شيئاً ما ، وخطر لى انها ربما تريد التخلص مني وانها لا تدري كيف تفعل وقلت :

– لنهبط المنحدر ولنذهب إلى القرية

رمتني بنظرة تنطق بالامتنـان ، وهبطنـا المنحدر في بطء . ذلك المنحدر الذي حفلت به حوادث السيارات وحين اقتربنا من أحد المنحنيات برز أمامنا فجأة شبح من خلف إحدى أشجار الشوح بحيث أجفلت ايللي وصاحت قائلة :

– أوه !.

وكان الشبح لتلك المرأة التي رأيتها في اليوم السابق على باب كوخها .. وأعني بها مسز لي .. وبدت لي اليوم أكثر حدة وخشونة ، وقد تهدلت

ضفائر شعرها الأسود ، وراحت تتطاير في الهواء ، والقت حول كتفيها معطفاً قرمزي اللون ، وبدت لى وهي واقفة تنظر الينا انها أطول قامة مما هي حقاً وقالت :

– ماذا تفعلان هنا ، أيها العزيزان ؟.. ما الذي جاء بكما إلى أرض الغجر ؟.

قالت ايللي:

– أوه .. لا أظننا تعدينا على أملاك الغير ؟

– بلى .. كأنكما فعلتما ، لأن هذه المنطقة ملك للغجر ، وان كانوا قد أقصوا عنها .. لن تصيبا خيراً هنا ، ولن يصيبكما أي خير في التجوال هنا كذلك .

لم تبد ايللي أية معارضة ، فهي لم تكن من هذا النوع ، واكتفت بالقول في رقة وفي لهجة مهذبة :

– إنني جد آسفة إذا كنا قد أتينا حيث لا يجب . ظننت ان هذا الموضع معروض للبيع اليوم .

قالت المرأة العجوز :

– سوف تجلب هذه الأراضي النحس لمن يشتريها . إسمعي يا جميلتي ، فأنت جميلة بما يكفي .. سوف يصيب النحس من يشتري هذه المنطقة فإن اللعنة قد حلت بها .. ضعي هذا نصب عينيك . إبتعـــدي عن منطقة الغجر ، فإن الموت والخطر يكمنان فيها .. إذهبي بعيداً عنها ولا تعودي اليها ثانية . لا تقولي إني لم أحذرك .

ردت ايللي في امتعاض خفيف

– ولكننا لم نفعل أي ضرر .

– إسمعي يا مسز لي . لا تخيفي هذه السيدة الشابة .

وتحولت إلى ايللي رقلت موضحاً :

- إن مسز لي تقيم في القرية .. لها كوخ هناك وهي تقرأ الطالع ، وتتنبأ بالمستقبل ، اليس كذلك يا مسز لي ؟

خاطبتها بطريقة ساخرة ولكنها أجابت تقول في بساطة وهي تمد قامتها بأكثر ما تستطيع :

- إنني أملك هـذه الموهبة ، إنني أملكها حقـاً .. فقد ولدت معي ، ولكننا نملكها جميعاً ، سأقرأ لك طالعك يا سيدتي الشابة ، ضمي بعضاً من الفضة في راحتي فأقرأ طالعك .

- لا أظن اني اريد ان يقرأ لي أحد طالعي .

- من الحكمة ان تفعلي ، فتعرفي شيئاً عن المستقبل .. يجب معرفة ما ينبغي ان تتجنبيه وماذا يصيبك .. تعالي .. إنني أعرف أشياء من الحكمة لك معرفتها .

وأعتقد ان الدافع إلى معرفة الخطر عند النساء لا يختلف تقريباً ، وقد لاحظت ذلك قبلا عند الفتيات اللاتي عرفتهن . كنت أدفع لهن تقريباً من جيبي لكي يذهبن إلى قارئات البخت إذا مـا اصطحبتهن إلى السوق . وفتحت ايللي حقيبتها ووضعت نصف جنيه في راحة المرأة العجوز فقالت هذه الأخيرة :

- آه !. الأمر على ما يرام ، يا جميلتي .. إسمعي مـا تقوله لك الأم لي .

خلعت ايللي قفازها ، والقت براحتها الصغيرة الرقيقة في يد المرأة العجوز. ونظرت هذه اليها وهي تقول لنفسها :

- ماذا أرى الآن ؟ ماذا أرى ؟.

وفجأة أفلتت يد ايللي وقالت مسز لي :

- لو كنت مكانك لأسرعت بالابتعاد عن هذا الموضع .. إذهبي ولا تعودي ثانية. إنسي أراضي الفجر، وانسي انك أتيت اليها. ولا أعني البيت المتداعي

فحسب ولكنني اقصد المنطقة كلها فهي ملعونة .

فقلت في خشونة :

– هذه هلوسة .. مهما يكن من أمر فلا دخل للسيدة الشابة بهذه المنطقة ، فإنها جاءت بقصد النزهة فحسب ولا دخل لها بالجيرة كلها .

فلم تعبأ العجوز وقالت باصرار :

– يمكنك ان تعيشي سعيدة ، ولكن يجب ان تبتعدي عن الخطر . لا تأتي إلى هذا الموضع مرة أخرى ، لان الخطر يكمن فيه وقد حلت به اللعنة . إذهبي بعيداً ، بعيداً جداً ، حيث يحبك الجميع ، وحيث يدللونك ويعنون بك .. يجب ان تكوني على حذر .. تذكري نصيحتي هذه وإلا !. وإلا !.

وارتجفت رجفة يسيرة وأردفت تقول :

– اني لا احب رؤية ذلك .. اني لا احب رؤية ما في يدك .

وبغتة القت بنصف الجنيه في يد ايللي وهي تنطق بشيء لم أتبينه ، ولكن بدا لي انها تقول :

– هذا فظيع !. فظيع !. إن ما أراه فظيع !.

وأولتنا ظهرها وانصرفت عنا في خطوات سريعة .

وقالت ايللي :

– يا لها من امرأة مخيفة !.

فقلت بصوت اجش :

– لا تعبئي بها ، أظنها مجنونة ، مخبولة .. انها إنما تريد إفزاعك ، أظن ان الأهالي يتوجسون من هذه المنطقة .

– هل وقعت بها حوادث ؟. حوادث مكدرة ؟

– إن الحوادث تقع في كل مكان .. أنظري الى ذلك المنحدر وإلى ضيق الطريق ! ان أعضاء مجلس القرية يجب ان يقدموا للمحاكمة لأنهم لم يفعلوا شيئاً

يمنع هذه الحوادث من الوقوع ، ستقع حوادث اخرى طبعاً في ذلك المنحدر فليست به أية علامات واشارات للخطر ..

– هل اقتصر الأمر على الحوادث فقط ، ألم تقع اشياء أخرى ؟

– إسمعي .. إن الناس يتأثرون بما يسمعون بسهولة ، فما أن تقع كارثة في مكان ما ، او ما ان يقع شيء غير عادي حتى ينسجوا حوله القصص الخيالية .

– وهل لهذا السبب ستباع اراضي الفجر بثمن بخس ؟

– هذا جائز ، ولكنني لا اعتقد ان احداً من الأهـــالي سيقدم على شرائها ، اظن ان الذي سيقدم على ذلك انما سيفعل لكي يستثمر أمواله .. ولكنك ترتجفين .

واردفت اقول :

– لا ترتجفي .. هلمي بنا سنسرع في سيرنا .. هل تفضلين ان افارقك قبل المدينة ؟

– كلا .. كلا بالطبع ، ولماذا تفعل ذلك ؟

قمت بمحاولة يائسة :

– اصغي الي .. انني سأكون في ماركيت شـــارويل غداً .. واعتقد .. لا اعرف هل ستكونين هناك .. أعني ، اليست هناك فرصة في ان أراك و ..

وجررت قدمي وشحت بوجهي عنهـــا ، واظن ان لوني قد اصطبغ واخذتني الحيرة ، فإنني اذا لم استطع ان انطق بشيء في هذه اللحظة بالذات فكيف ادبر امري معها اذن ؟

قالت :

– اوه ، نعم ، اني لن اعود الى لندن قبل الليل .

– اذاً ، ربما .. هل لك .. اعني .. انها لوقاحة مني .

– كلا انها ليست كذلك ؟

– حسناً ، لعلك تقبلين ان تتناولي الشاي معي في احد الملاهي ، مقهى « الكلب الأزرق » مثلاً ، انه مكان جميل و ..

ولم استطع ان اجد الكلمة التي اريد فاستخدمت الكلمة التي طالما سمعت أمي تنطق بها وقلت في شيء من القلق :

– انه مكان لائق .

ضحكت ايللي عندئذ وقالت :

– انني واثقة انه مكان لائق ، نعم ، سآتي ، في نحو الرابعة والنصف . هل يوافقك هذا الموعد ؟

– سأنتظرك .. انني جد مسرور .

وما كنت لأدري سبباً لسروري عندئذ .

وبلغنا آخر منحنى في الطريق ، ورأيت البيوت ترتفع على مبعدة ، فقلت :

– الى الملتقى اذاً .. الى الغد .. ولا تفكري في تلك المرأة العجوز الشمطاء ثانيـة . اظن انه يروق لها اخافـة الناس ، وهي ليست كل شيء هنا .

وسألتني ايللي :

– هل تعتقد انه مكان مخيف ؟

– منطقة الغجر ؟. كلا ، لا اظن ذلك .

جاء الرد سريعاً وبغير تردد ، والحق انني لم اكن اعتقد في ذلك الوقت بأن منطقة الغجر مكان مخيف كما رأيت فيما بعد ، وكنت اعتقد ان المكان جميل لإقامة قصر رائع فيه .

حسناً ، هكذا تم لقـــاؤنا انا وايللي لأول مرة . ومضيت الى ماركيت شارويل في اليوم التالي ، وانتظرت في مقهى « الكلب الأزرق » ولم تلبث

ان اقبلت . وتناولنا الشاي وتبادلنا الحديث ، ولم يذكر احدنا الكثير عن نفسه في ذلك اليوم ، او عن حياته ، وانما تحدثنا عن الأشياء التي نفكر فيها ونحس بها .

ثم لم تلبث ايللي ان نظرت الى ساعتها وقالت انها يجب ان تنصرف فقطار لندن سينطلق في الخامسة والنصف فقلت :

– حسبتك أتيت في سيارة .

بدا عليها الارتباك شيئاً ما عندئذ ولكنها لم تلبث ان قالت ان السيارة التي جاءت بها بالأمس ليست ملكاً لها ، إلا انها لم تقل لمن كانت . وخيم الارتباك علينا لحظة ، وأشرت إلى الساقي ونقدته الحساب ثم خاطبت ايللي قائلاً :

– هل . هل أراك ثانية ؟

لم تنظر إلي وإنما أطرقت إلى المائدة وهي تقول :

– سأبقى في لندن أسبوعين آخرين .

– أين ؟. ومتى ؟.

وتواعدنا على اللقاء في منتزه ريجنت بعد ثلاثة أيام . وكان يوماً جميلاً ، وقد تناولنا الطعام في الهواء الطلق ، وتنزهنا في حديقــــة الملكة ماري وجلسنا على أحد المقاعد واخذنا نتبادل الحديث . ومنذ تلك اللحظة ، بدأنا نتكلم عن شؤوننا .. حدثتها عن أيام المدرسة ، ولكني مع ذلك لم أذكر لها كل شيء ، ثم حدثتها عن الأعمال التي مارستها .. أو عن بعضها بوجه أصح ، وأوضحت لها كيف انني لم أتعلق بأي عمل منها مفسراً لها عدم استقراري وبقائي في عمل واحد وقتاً طويلاً . ومن العجيب انها أبدت اغتباطها وسرورها لذلك وقالت :

– إن الأمر مختلف .مختلف جداً ، وبصورة رائعة .

– مختلف ؟ عن اي شيء ؟

– عني أنا .

– هل أنت ثرية ؟

– نعم ، إني فتاة ثرية مسكينة .

وحدثتني عندئذ ، وفي كلمات متقطعة عن أقاربها الأثرياء وعن الرفاهية التي تعيش فيها ، وعن أصدقائها الذين يفرضون عليها فرضاً وعن عجزها عن ان تفعل ما تريد ، وعن لقائها بقوم لا تحب لقائهم على الرغم من انهم يستمتعون بصحبتها ، وقالت ان امها ماتت وهي لا تزال طفلة ، وأن أباها تزوج للمرة الثانية ثم مات بعد سنوات قلائل . وفهمت من حديثها بأنها لا تهتم كثيراً بزوجة ابيها ، وانها قضت اغلب سني حياتها في اميركا وانها تسافر إلى الخارج كثيراً .

وبدا لي انني استمع إلى قصة خيالية ، واستغربت ان تعيش فتاة في مثل سنها هذه المعيشة التي اشبه ما تكون بمعيشة المنفيين .

كانت تختلف طبعاً إلى الحفلات والمآدب ، ولكن خيل لي وانا استمع اليها إن ذلك كان منذ خمسين سنة . كانت حياتها خالية من البهجة والمرح ، تختلف كل الاختلاف عن حياتي ، ومهما يكن فقد طاب لي ان استمع اليها ، ولكن بدا لي ذلك سخيفاً .

وقلت غير مصدق :

– ليس لك صديقات مخلصات إذاً ؟ . وماذا عن الفتيان ؟

فقالت في مرارة :

– إنهم يختارونهم لي مسبقاً .. ولا تروق لي صحبتهم .

– كأنك في سجن !

– هذا ما يبدو لي .

– ولكن .. ألا اصدقاء لك حقاً ؟

– لي صديقة الآن .. فهناك جريتا .

– ومن هي جريتا ؟

– رفيقتي .. اقبلت في البداية بصفتها وصيفة لي .. كانت لي وصيفات كثيرات غيرها .. كانت هناك فتاة فرنسية اقامت معنا سنة ، علمتني فيها اللغة الفرنسية ، ثم اقبلت جريتا من المانيا اخيراً كي تعلمني الألمانية ، وجريتا تختلف كثيراً عن غيرها من الوصيفات السابقات .

– هل تحبها كثيراً ؟

– انها تساعدني مساعدة فعالة ، فهي تدبر لي اموري بحيث استطيع ان افعل ما اشاء ، واذهب الى اي مكان اريد . انها تقدم على الكذب في سبيلي وما كان في استطاعتي القدوم الى منطقة الفجر لولاها هي ، فهي التي ترافقني وتهتم بي اثناء إقامتي في لندن ، بينما تبقى زوجة ابي في باريس . وإذا اردت الهرب الى مكان ما اكتب خطابين او ثلاثاً مسبقاً واعطيهم لجريتا فترسلها مكاني من وقت لآخر .

– ولماذا ذهبت الى منطقة الفجر ؟. لأي سبب ؟

لم تجب على الفور ، ومرت لحظة طويلة قبل ان تقول :

– قد دبرنا الأمر انا وجريتا . وانها والحق يقال فتاة مدهشة فلديها آراء كثيرة وافكار مدهشة .

– وما شكلها ؟

– اوه !. إنها فتاة جميلة ، طويلة القامة ، شقراء ، في مقدورها عمل كل شيء .

– اظن انني لن اميل اليها .

فضحكت ايللي وردت :

– بل ستميل اليها وستحبها .. انني واثقة من ذلك .. انها تتمتع بذكاء عجيب .

– انني لا احب الفتيات اللاتي يتمتعن بذكاء عجيب ، ولا احب الشقراوات

بالذات . انني افضل الفتيات الرقيقـات ذوات الشعر الأحمر الذي يشبـه أوراق الخريف .

– اعتقد انك تغار من جريتا .

– يجوز .. انك تحبينها كثيراً ؛ اليس كذلك ؟

– نعم .. انني احبها جداً .. فهي قـد احدثت تغييراً كبيراً في مجرى حياتي .

– اهي التي اقترحت عليك الذهاب الى منطقة الفجر ؟ انني لأعجب لماذا فليس في ذلك المكان ما يستحق الرؤية ، هذا امر غامض .

– انه سرنا الخاص .

وبدا عليها الارتباك فقلت :

– تعنين سرك انت وجريتا .. افصحي لي عنه .

ولكنها هزت رأسها وردت :

– كلا .. يجب ان تكون لي اسراري الخاصة .

– وهل تعلم صاحبتك جريتا اننا نلتقي ؟

– انها تعلم اني التقي بشخص ما وهذا كل شيء ، انها لا تسألني شيئاً ، لكنها تعرف اني سعيدة .

– إصغي الي يا ايللي .. هل تعتقدين انه لا بد لي ان التقي بأهلك .. ام تراك تفضلين الا افعل .

فردت على الفور :

– بالنسبة الى اهلي فاني لا اريدك ان تلتقي بأحد منهم .

– اني لست اهلا .

– لم اقصد هذا على الاطلاق ، ولكني عنيت انهم سيثيرون متاعب لا قبل لي بمواجهتها .

– اشعر احياناً انه موقف غير شريف مني .. فهو يضعني في مركز سيء

الا تظنين ذلك ؟

– اني كبرت بما فيه الكفاية كي اختار اصدقائي بنفسي ، فأنا اوشكت ان ابلغ الحادية والعشرين .. ولكني حين ابلغها حتماً فيمكنني ان اختار من اشاء من الأصدقاء ، ولن يستطيع احد ان يتدخل في حياتي . ولكن كما ترى الآن سوف يثير الأمر متاعب جمة ، واذا عرفوا بأمرك فلن يدعوني اذهب الى اي مكان اريد ، ولن استطيع لقاءك ، ستكون هناك ، اوه ! . دعنا الآن من هذه الناحية ، دعنا نستمر كما نحن .

وهكذا لم ار ايللي لمدة اسبوع ، وكنت قد جمعت ما ادخرته حتى ذلك الوقت، ولم يكن بالمبلغ الكبير ، واشتريت خاتماً صغيراً من الفضة الخضراء قدمته لها بمناسبة عيد ميلادها ، وقد احبت ايللي هذا الخاتم ، وبدت في منتهى السعادة وقالت :

– ما أجمله !

لم تكن تتزين بجوهرات كثيرة ، ولم يكن من شك في ان الجوهرات التي تلبسها من الماس الحقيقي او الزمرد او نوع من الأحجار الكريمة الثمينة ، ولكنها مع ذلك احبت خاتمي المصنوع من الفضة كثيراً ، وقالت :

– سيكون احب هدية عيد ميلاد الى قلبي .

ثم جاءتني رسالة عاجلة منها ، كانت مسافرة إلى الخارج ، هي وأسرتها .. إلى فرنسا الجنوبية ، بعد عيد ميلادها على الفور .

وكتبت إلي تقول :

– ولكن لا تقلق .. سنعود بعد أسبوعين أو ثلاثة لكي نسافر إلى امريكا ، وسنلتقي عند عودتي ، لأن هناك شيئاً خاصاً أريد أن أتحدث فيه معك .

أحسست بالقلق والاضطراب لعدم رؤيتي ايللي ، ولمعرفتي بأنها ذهبت

إلى فرنسا . وجاءتني أنباء عن منطقة الفجر كذلك . ويبدو انها بيعت باتفاق خاص ، ولكني لم أعلم من الذي ابتاعها . .

لا ريب إنها إحدى الشركات ، فقد قام بعمليـــة الشراء محام من لندن ، وقد حاولت الحصول على مزيد من المعلومات ، ولكن المحامي المذكور كان حريصاً ، شديد الحذر ، ولم أتكلم معه هو طبعاً ، ولكني اتصلت ببعض موظفيه ، ولم يطلعني هؤلاء على كل ما أريد . . كل ما عرفته هو ان عميلاً ثرياً اشتراها كي يستثمرها استثماراً مضموناً ، حين ترتفع سعر الأرض .

الفصل السادس

ذهبت لزيارة أمي وحين عدت إلى مسكني وجدت في انتظاري برقية مرسلة من جزر الأنتيب هذا نصها :

« قابلني غداً في منتصف الخامسة في المكان المعتاد » .

كانت ايللي متغيرة ، وقد أدركت ذلك على الفور ، والتقينا في منتزه ريجنت كعادتها ، وكنا في بداية الأمر كغريبين يلتقيان على غير موعد ، واستولى علينا الارتباك شيئاً ما ، فقد كنت أريد ان أبوح لها بشيء من ناحيتي ولم أكن أدري كيف أطرق الموضوع ، وأظن ان هذه هي حال أي رجل يفكر في طلب الزواج .

وكانت هي ، من ناحيتها غريبة الأطوار ، ولعلها كانت تفكر في رفض طلبي والتخلص مني بطريقة لبقة بارعة بحيث لا تجرح شعوري ، ومع ذلك لم يخطر لي هذا الخاطر ، فقد كنت أفكر في تكوين مستقبلي ، وكنت واثقاً ان ايللي تحبني ، ولكن كان في تصرفاتها شيء أثار حيرتي ، فقد كانت أكبر مني سناً بسنة ، ولا أظن ان سنة واحدة تجعل أية فتاة مختلفة كل هذا الاختلاف .

كانت قد سافرت إلى جنوب فرنسا هي وأهلها وقد أطلعتني على ذلك ثم أردفت تقول في شيء من الحياء :

– اني رأيت . رأيت ذلك القصر الذي حدثتني عنه.. ذلك القصر الذي بناه صديقك ، المهندس المعماري .

– من ؟. سانتونيكس ؟

– نعم ، ذهبنا إلى ذلك القصر ذات يوم وتناولنا الغداء هناك .

– وكيف حدث ذلك ؟. هل تعرف زوجة أبيك صاحبه ؟

– ديمتري قسطنطين ؟. حسناً .. إنها لا تعرفه معرفة وثيقة ولكنها التقت به .. حسناً .. إن جريتا دبرت الأمر بحيث التقينا به .

فقلت وقد ظهرت أمارات الضيق في صوتي :

– جريتا مرة اخرى !

– ألم أقل لك انها بارعة جداً في تدبير الأمر ؟

– أوه !. صحيح .. إذن فقد دبرت لك ولزوجة ابيك .

فقاطعته ايللي :

– وللعم فرانك كذلك !

ثم استطردت تقول :

– أوه !. لا تغضب ، فإني أريد ان أسر لك شيئـــاً ، إني أعرف الآن ماذا كنت تقصد حين حدثتني عن صديقك سانتونيكس ، فالقصر رائع . يختلف كل الاختلاف عن القصور الأخرى التي رأيتها حتى اليوم ، وأستطيع ان أقول الان انه إذا بنى « لنا » بيتاً ، فإن هذا البيت سيكون تحفة حقاً .

وهكذا استخـدمت الكلمة على غير وعي منها .. لنـا . وعادت تقول :

– إنني ذهبت إلى الريفييرا ، وطلبت من جريتا أن تدبر الأمر كي نرى البيت الذي وصفته لها ، إذا كانت تريد ان ترسم لنفسنا صورة واضحة عن البيت الذي بنيناه في أحلامنا ، والذي نريد ان يبنيه لنا رودلف

سانتونيكس .

ـ يسرني انه أعجبك

فسألتني تقول :

ـ وأنت . فماذا فعلت ؟

ـ ذهبت لزيارة أمي .

ـ إنك لم تحدثني عنها كثيراً

ـ ولماذا أحدثك عنها ؟

ـ ألا تحبها ؟

أجبت في تفكير :

ـ لا أعرف ، أحياناً اظن اني أحبها .. ومهما يكن من أمر فإن المرء ينمو ويكبر ، ولا يلبث ان يستغني عن أبويه .

ـ أظنك متعلق بها ، وإلا لما بدوت متشككاً هكذا ، وأنت تتحدث عنها .

ـ إنها تثير خوفي شيئاً ما فإنها تعرفني خير المعرفة .. اعني انها تعرف أسوأ ما في .

ـ يجب ان يعرفك شخص ما على حقيقتك على كل حال .

ـ ماذا تعنين ؟

ـ هناك مثل شائع يقول ان الخادم لا تخف عليه أسرار سيده ، وأعتقد ان كلاً منا يجب ان يكون له خادم فيتعرف على عيوبه ويصلحها . ومما لا شك فيه ان من العسير ان يحرص الانسان دائماً على حسن رأي الناس فيه .

ـ حسناً . إن لك آراء غريبة يا ايللي .

وأخذت يدها وسألتها قائلاً :

ـ هل تعرفين كل شيء عني ؟

– أعتقد ذلك .

نطقت بهاتين الكلمتين في بساطة وهدوء فقلت :

– ولكني لم أحدثك بالكثير عني .

ثم استطردت :

– المهم الآن هو ماذا نفعل .. فلن يكون الأمر هيناً يا ايللي . فأنت تعرفين جيداً من انا وماذا فعلت حتى اليوم ؟ ونوع الحياة التي أحياها ؟ انني ذهبت لزيارة أمي ولرؤية الشارع المقبض الذي كنا نعيش فيه . إن دنيانا دنيا أخرى غير التي تعيشين فيها يا ايللي ، ولا اعرف كيف يمكننا الجمع بينهما .

– تستطيع ان تقدمني لأمك ..

– نعم . أستطيع ان أفعل هذا ، ولكني أفضل الا أفعل ، واظن أن لقولي هذا أسوأ الوقع واقساه في نفسك ، ولكنك لا ريب تعرفين انه يجب نعيش معاً حياة غريبة حقاً . حياة غير تلك التي اعتدت عليها ، وغير تلك التي اعتدت عليها أنا الآخر ستكون حيـــاة جديدة تستند على أسس جديدة من التفاهم يذوب فيه فقري وجهـــلي في ثقافتك وثرائك ومركزك الاجتماعي سوف يعتقد اصدقاؤك انك مغرورة في حين يعتقد اصدقائي انني جلف فقط . فماذا نفعل يا ايللي ؟

– سأقول لك ماذا نفعل يا مايك ؟. سنعيش في أراضي الغجر .. في بيت .. بيت الأحلام الذي سيبنيه لنا صديقك سانتونيكس .. هـذا ما سوف نفعل .

وأردفت تقول :

– ولكننا سنتزوج أولاً .. أليس هذا ما تريد ؟

– نعم اذا كنت واثقة من شعورك نحوي .

– حسناً .. سنتزوج في الأسبوع المقبـــل إذن ، اني بلغت الآن سن

الرشد واستطيع ان افعل ما أريد وهذا هو كل الاختلاف ، وأظنك على حق فيما يتعلق بالأهل ، فأنا لن اذكر شيئاً لأهلي ، وعليك انت ألا تذكر شيئاً لأمك ، ان نذكر لهم شيئاً وانما سنضعهم امام الأمر الواقع فيما بعد ، ولا يهمنا ما قد يحدث عندئذ .

– هذا رائع .. رائع يا ايللي .. ولكن هناك شيئا آخر .. يعز علي ان أحدثك عنه الان .. اننا لن نستطيع الاقامة في أراضي الفجر .. سنبني لنا بيتا في موقع آخر لأن أراضي الفجر بيعت .

– أعرف انها بيعت .

واردفت تقول ضاحكة :

– انك لا تفهم يا مايك ، فأنا التي اشتريتها .

الفصل السابع

جلسنا هناك ، فوق المشب ، بجوار البركة . وكان هناك بعض الناس يجلسون هنا وهناك ، ولكننا لم نهتم ، بل حتى لم نشعر بهم فقد كنا عاشقين سعيدين نتحدث عن المستقبل ، ونتبادل النظرات في صمت من غير أن ننطق بكلمة .

وقالت اخيراً :

– مايك ، هناك شيء لا بد ان احدثك عنه ، شيء يتعلق بي .

– لا حاجة بك الى ذلك .. لا حاجة بك الى ان تحدثيني بأي شيء .

– ولكن يجب ان أقول لك ، كان يجب ان اقول لك ذلك منذ وقت طويل ولكني لم أشأ لأنني ، لأنه خطر لي ان قولي هذا قد يبعدك عني ، فهو يتعلق بأراضي الفجر .

– هل اشتريتها حقا ؟ ولكن كيف تم لك ذلك ؟

– كلفت بعض المحامين بشرائها .. وهي طريقة عادية .. طريقة طيبة للاستثمار كما تعرف فان الأرض سيرتفع ثمنها . وقد اغتبط المحامون بهذه العملية حقا .

– انك تتكلمين كما يتكلم رجال الأعمال تماما .

– دعنا من الأعمال الان ، ولنعد الى موضوعنا الأول ، ومع ذلك

فقد قلت لك ما اريد بطريقة ما ، ولكنني لا احسب انك قد وعيت ما قلت لك .

– لا اريد ان اعرف .

فارتفع صوتي الى حد الصراخ وأنا استطرد قائلا :

– لا تقولي شيئا ، لا اريد ان اعرف شيئا عما حدث قبل ذلك ولا اريد ان اعرف اذا كنت قد احببت احداً غيري او ..

فقاطعتني قائلة :

– لا شيء من هذا القبيل ، لم اكن ادري ان هذا هو ما يجول في خاطرك وما تخشاه .. كلا .. ليس هناك اي شيء من هذا .. ليست لي أية اسرار جنسية ، ولا يوجد في حياتي رجل آخر غيرك ، ولكن الحقيقة هي اني حسنا .. اني ثرية .

– اعرف ، فقد سبق ان اطلعتني عليه .

فعادت تقول وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة .

– نعم ، وقد وصفتني إذ ذاك اني فتاة غنية مسكينة ، ولكن الأمر غير ذلك ، فان جدي كان ثريا جداً . وهكذا ورث ابي ثروة كبيرة ، وحين مات فجأة ، ورثت انا كل شيء .. وانا الان واحدة من أغنى النساء يا مايك .

– يا إلهي ، لم أكن اعرف .. نعم انك على حق ، لم اكن اعرف ان الأمر بهذه الصورة .

– لم أكن اريدك ان تعرف . فلم اشأ ان اخبرك ، وهذا هو السبب في اني كنت خائفة حين ذكرت لك اسمي .. فينيلا جيوتمان ، وقد خفت ان تعرفه ولهذا غيرته ونطقت به جودمان .

– نعم اني سمعت اسم جيوتمان ذات يوم ولكن لا اظن مع ذلك اني كنت سأعرفه فان هناك اشخاصا كثيرين تشابه اسمائهم .

– ولهذا أخفيت عنك حقيقة أمري طوال هذا الوقت ، وتجنبت الحديث عنه ، كان هناك مخبرون يتولون حراستي وحمايتي ، ولم يكن مسموحاً لأي شاب بالدنو مني ومخاطبتي ..

ولا يمكن أن تتصور الحياة الرهيبة المرعبة التي كنت أحياها . كنت أشبه بالسجينة بين القضبان ، ولكن انتهى كل شيء الآن . وإذا كنت لا تبالي حقاً ..

فقلت مقاطعاً :

– إنني لا أبالي طبعاً .. سوف نمرح ونلهو كثيراً فأنت لا يمكن أن تكوني غنية جداً بالنسبة لي .

وضحكنا معاً وقالت

– إن ما أحبه فيك هو انك تستطيع أن تكون طبيعياً في كل شيء .

– ثم اني أعتقد انك تدفعين ضرائب باهظة على هذه الثروة ، أليس كذلك ؟ فهذا سبب من الأسباب الطريفة التي تجعلك تبدين مثلي تقريباً ، فإن كل الذي اكتسبه يمضي الى جيبي ، ولا يستطيع أي أحد أن يستقطع منه شيئاً ما .

قالت ايللي

– سيكون لنا بيتنا . بيتنا ، في أراضي الغجر .

وسرت في بدنها رعشة لم تلبث أن تبخرت ، فأسرعت أقول .

– هل تشعرين بالبرد يا عزيزتي ؟

ورفعت عيني نحو الشمس ، وأنا أقول ذلك .. ولكنها أجابتني قائلة :

– كلا ..

وكان الجو حاراً حقا وأشعة الشمس تملأ المكان .

وعادت ايللي تقول

- هذه المرأة الغجرية التي التقينا بها هنا في تلك الليلة !
- أوه .. إنها إمرأة مخبولة .. فلا تفكري في أمرها .
- حقاً تظن إنها تعتقد ان هناك لعنة على هذه الأراضي حقاً ؟
- لا أظن إنها عادة الغجر دائماً ، فهم يتشدقون بأن اللعنة تحل دائماً على المكان الذي يقصون عنه .
- هل تعرف الكثير عن الغجر يا مايك ؟

أجبت في صدق :
- لا أعرف عنهم شيئاً على الاطلاق .. ويستطيع صديقي سانتونيكس ان يبني لنا البيت في أي موضع نختاره .
- كلا .. أريد البيت هنا ، فهنا رأيتك لأول مرة وانت تمشي في هذا الطريق فجأة ، ولم تلبث أن رأيتني وتسمرت في مكانك ورحت تحملق في ، لن أنسى هذا أبداً .
- وأنا كذلك لن أنساه
- ولهذا سنبني بيتنا هنا ، وسيبنيه لنا صديقك سانتونيكس .

قلت في غصة غير مريحة :
- أرجو أن يكون ما يزال على قيد الحياة ، فقد كان مريضا جداً حين رأيته آخر مرة .
- أوه .. إنه على قيد الحياة ، فقد ذهبت لزيارته .
- انك تثيرين دهشتي من دقيقة لأخرى يا ايللي بما تفعلين .
- انه رجل مدهش ولكنه مع ذلك مخيف .
- هل أخافك ؟
- نعم ، انه أخافني كثيراً لسبب ما .
- هل حدثته عنا ؟
- نعم ، أوه ، نعم ، قلت له كل شيء عنا ، وعن اراضي الغجر ، وعن

البيت الذي نريد أن نبنيه

– وبماذا أجاب ؟

– سألني اذا كنت أعلم ما أنا مقدمة عليه بزواجي منك افأجبته بالايجاب طبعـا .

– حسنا ؟

– قال انه يعجب اذا كنت انت تعلم ذلك .

– انني أعرف تماما ما انا فاعل .

قالت ايملي

– هل تتزوج يوم الثلاثاء المقبـــل ؟ ان يوم الثلاثاء يوم جميل من أيام الأسبوع .

– ولن يكون هناك أحد غيرنا .

– فيما عدا جريتا .

فصحت أقول :

– فلتذهب جريتا الى الجحيم ا انها لن تحضر زواجنا ، لن يكون هناك غيرى وغيرك ، ويمكننا ان نستدعي شاهدين من بين المارة .

وأظن حقا اني اذا عدت الى الوراء ، اجد أن هذا اليوم كان أسعد يوم في حياتي .

الفصل الثامن

وهكذا تزوجنا أنا وايلي ، واعلم تماماً ان الأمر يبـدو مقتضباً وأنا أقول ذلك ..

ولكن هكذا تم كل شيء حقاً ، فقد قررنا أن تتزوج وتزوجنا .

وكان ذلك جزءاً من الخطة المرسومة ، ولكنـه لم يكن مع ذلك خاتمة رومانتيكية لقصة حب جميلة ..

« وهكذا تزوجـا وعاشا في سعادة وهناء إلى أن جاءهما هادم اللذات » .

كان الأمر كله بسيطاً إلى حد كبير حقاً ، فإن ايلي دفعها حبها للتحرر إلى أن تخفي كل شيء بمهارة فائقة .

وكانت جريتا ذات نفع كبير لنا ، فقـد قامت بكل الاجراءات الضرورية لذلك فدبرت كل شيء ببراعة كبيرة واستطعت أن أتحقق بأسرع ما يمكن من أن أحداً لم يكن يهتم لا بايلي ولا بما تفعل ، فلم يكن لزوجـة أبيها من مشاغل إلا الاهتمام بحياتها الاجتماعية والغرامية .

وإذا لم تشأ ايلي مرافقتها إلى أي مكان من المعمورة ، فلم يكن هناك ما يرغمها على ذلك خاصة ، وانها محاطة بحشد من المربيات والوصيفات اللاتي يعتنين بها .

والآن فقد حصلت على ثروتها الطائلة ، فلم يكن لأي فرد من أفراد العائلة أي سلطان عليها ، وفي مقدورها ان تنفق منها ما تشاء ، وان تمضي حيث تشاء .

وأعتقد ان جميع أفراد الأسرة كانوا يعتبرون جريتـــا أداة رائعة يركنون اليها ويثقون فيها ، والحق ان جريتا كانت فتاة عجيبة تتمتع بكفاءة عالية في استطاعتها ان تقوم بكل الاجراءات والتدبيرات اللازمة بقدرة فائقة .

كانت كبيرة النفع تعرف كيف تحصل على ثقة الجميع فتفتن زوجة الأب والعم والأقارب القلائل الذين يحومون حول ايللي . وكان لهذه الأخيرة ثلاثة من رجال القانون على الأقل يعملون طبقاً لأوامرها ورغباتها ، وكانت تتصل بكل منهم من وقت لآخر ، ولها حاشية كبيرة من رجال المال والقـــانون والأوصياء وكانت هذه دنيا جديدة بالنسبة لي لم يسبق لي ان عرفتها من قبل ولم يخطر لأيللي طبعاً انه كان يجب ان تطلعني على شيء منهـــا ، لأنها نمت وترعرعت في هذا الوسط بحيث خطر لها ان الجميع لا بد يعرفون كل صغيرة وكبيرة عنه .

والواقع ان القاء لمحات خاطفة على خصوصيات حياة الاخرين كان الشيء الوحيد الذي كنا نستمتع به اكثر من غيره في المرحلة الأولى من زواجنا .. ولأتكلم بصراحة ، فإني احب الصراحة دائماً لأنها أمثل طريقة تجعلني أفهم حياتي الجديدة ..

لأتكلم بصراحة فأقول ان الفقير لا يعرف حقاً كيف يعيش الأغنياء ، والأغنياء لا يعرفون بدورهم كيف يعيش الفقراء ، وكان في هذا الأمر وحده مبعث استمتـــاع كبير لنا نحن الاثنـــين ، فقد قلت ذات مرة في شيء من الارتباك :

– إسمعي يا ايللي .. هل ستكون هناك دسائس ومؤامرات بخصوص هذا ؟

أعني بخصوص زواجنا ؟

فكرت ايللي بشيء من عدم الاكتراث ثم قالت :

– أوه ، نعم .. سيكون الأمر فظيعاً جداً .

وأردفت تقول بعد لحظة :

– ارجو ألا تعبأ بذلك .

– إني لا أعبأ .. ولماذا أعبأ ؟ ولكن أنت . هل يشاغبونك ؟

– إني أتوقع ذلك،ولكن لا داعي لأن تهتم بهم المهم هو انهم لا يستطيعون عمل شيء .

– ولكن ألا يحاولون ؟

– بل سيحاولون طبعا .

ثم أردفت تقول في تفكير :

– سيحاولون شراءك طبعا .

– شرائي ؟

– لم اشمئزازك هذا ؟

وارتسمت على شفتيها ابتسامة سعيدة وأردفت تقول :

– لن يكون الأمر كما أقول تماما .. ولكن لعلك تعلم ما حدث لميني تومبسون ؟

– ميني تومبسون ؟.. اليست هي تلك التي يلقبونها بملكة البترول ؟

– إنها هي . فقد هربت وتزوجت بأحد حرس الشواطىء .

قلت في شيء من الضيق :

– إصغي إلي يا ايللي . اني اشتغلت كحارس شواطىء ذات مرة ، وكان ذلك في ليتل هامبتون .

– أوه .. حقا ؟.. هذا أمر مضحك ! هل قضيت بهذا العمل فترة

طويلة ؟

– كلا طبعا . لم أقض فيه غير صيف واحد .

– آمل ألا يكون هذا العمل قد ضايقك .

– لكن ماذا حدث لميني تومبسون ؟

– اضطر اهلها إلى دفع مائتي الف دولار لزوجها لأنه لم يرض بأقل من ذلك .

وأردفت تقول :

– وكانت ميني شديدة التعلق به !

– إنك تثيرين دهشتي يا ايللي ، فأنا لم أحصل على زوجة فحسب ، وإنما حصلت على زوجة تمثل رأسمال كبير ، من السهل استبداله في أي وقت .

– صحيح ، إتصل بأي محام معروف ، وتحدث معه بصراحة فيتخذ إجراءات الطلاق ويحدد قيمة « النفقة » .

واستطردت تقول بعد لحظة :

– إن زوجة ابي تزوجت أربع مرات ، وقد حصلت على مبالغ كبيرة بهذه الطريقة .

ثم أردفت تقول

- أوه يا مايك . لا تنظر إلي هكذا .

والشيء المضحك حقا هو اني صدمت وجرحت في كبريائي ، وشعرت بنفور كبير من نساء المجتمع الفني . ولكن ايللي كانت تبدو بسيطة طاهرة الذيل ، وقد أمكنها تقبل مثل هذه الأمور بهذه البساطة ، كما لو كانت أموراً عادية ، فقد كنت أعرف حق المعرفة طبيعة المخلوقة التي تزوجتها .. كنت أعرف بساطتها وصدق إحساساتها ، ورقتها ودماثة خلقها .

فلم تكن تعرف الكثير عن دنياي .. دنيا البحث عن عمل والجري وراءه

واستجدائه بشق الطرق .. دنيا السباق والمخدرات وأخطار الحياة .. دنيا المغامرين والأفاقين الذين أعرفهم جيداً بحكم احتكاكي بهم .

كانت تجد كل المتعة في الاصغاء إلى دقائق حيـــاتي ، كما كنت استمتع بدوري بالاصغاء إلى دقائق حياتها .. كان يخيل لكل منا انه يكتشف بلداً غريبا لم يطرقه من قبل .

وإذ أعود بالذاكرة الى الوراء ، أرى ان أيامي الأولى مع ايللي كانت سعيدة ورائعة وقد قبلت سعـــادتي في ذلك الوقت كأمر مفروض ، وكذلك فعلت هي . وقد تزوجنا في احد مكاتب التسجيل في بلايموث ، فلم يكن اسم جيوتمان شائعا في انجلترا ، فـــلم يعرف أي أحد سواء من الصحفيين أو من غيرهم أي شيء عنا . ولم يعرف احد وريثة جيوتمان في انجلترا . وقد نشرت الجرائد نبذة قصيرة تقول انها في « ايطاليا » في يخت أحد الأثرياء المعروفين .

وهكذا تزوجنا في مكتب التسجيل كما سبق القول ، وشهد على زواجنا الموظف الذي يدير المكتب ، والموظفة التي تكتب على الالة الكاتبة . وقد القى علينا ذلك الموظف خطبة صغيرة في مسؤوليات الحياة الزوجية ، وتمنى لنا السعادة والتوفيق . وانصرفنا من المكتب بعد ان أصبحنا زوجين : مستر ومسز مايكل روجرز ! وقضينا أسبوعا في فندق يشرف على البحر ثم سافرنا الى الخارج وقضينا ثلاثة أسابيع نتنقل حيث يحلو لنا ، ننفق عن سعـــة ، وبغير حساب .

سافرنا الى اليونان ، وذهبنـــا الى فلورنسا ، والى البندقية ، وأقمنا فترة من الوقت في الليدو ، ثم انتقلنـــا بعد ذلك الى الريفييرا ، والى الدولوميت .

وبينما كنا نستمتع بوقتنا هكذا ، كانت جريتا ، كما ذكرت ايللي فيما بعد ، لا تزال في انجلترا تقوم بالدور المرسوم لها ، فتنتقل من مكان الى آخر

وتبعث بالرسائل والبطاقات التي تركتها لها ايلملي من الأماكن المختلفة التي تذهب اليها .

قالت ايلملي:

– لا شك انه سيأتي يوم ينكشف فيه كل شيء ، وسوف يقع الجميع علينا كما يقع سرب من النور ، ولكن في مقدورنا ان نستمتع بحياتنا الى ان يقع ذلك .

– وجريتا ؟ الن يحقدوا عليها حين يعرفون كل شيء ؟

– أوه ! طبعا !. ولكنها لن تعبأ بهم . ستعرف كيف تدافع عن نفسها

– الن يقفوا في طريقها ويحولون بينها وبين الحصول على عمل آخر ؟

– ولماذا تبحث عن عمل آخر ؟. ستأتي للاقامة معنا .

– كلا .

– ماذا تعني يا مايك ؟

– لا أريد ان يقيم احد معنا .

– ولكن جريتا لن تزعجنا ، وستكون ذات نفع كبير لنا . والواقع اني لا أعرف ماذا كنت أستطيع ان أفعل بدونها . فهي تدبر وتدبر كل شيء بمهارة كبيرة .

قطبت حاجبي وقلت:

- لا أظن اني سأميل اليها .. ثم اني اريد ان نكون في بيتنا .. بيت أحلامنا وحدنا لا يشاركنا فيه أحد .

– نعم .. اني أعرف ماذا تعني ، ومع ذلك ..

وترددت واستطردت أخيراً تقول :

– أعني سيكون الأمر شاقا بالنسبة لجريتا فهي لن تجد مكانا تقيم فيه . ومهما يكن فقد قضت السنوات الأربع الاخيرة معي ثم لا تنس انها كانت

أكبر عون لنا في زواجنا .

– لا أريدها ان تتدخل في حياتنا طوال الوقت .

– ولكنها لن تزعجنا يا مايك ، انك لم تلتق بها حتى الان .

– كلا .. أعلم اني لم التق بها ولكن لا دخل لهذا بشعوري نحوها .. كل ما هنالك هو اني أريد ان نعيش وحدنا يا ايللي .

قالت في رفق :

– أيها الحبيب مايك .

وتركنا الموضوع مؤقتا .

الفصل التاسع

كان ذلك في اليوم التـالي على ما أعتقد ، وكنا في أثينا ، وبغتـة ، وفيما نحن نصعد درجات الأكروبول ، التقت ايللي ببعض معـارفها ، وكانوا قد هبطوا إلى البر من إحدى السفن السياحية ، وانفصلت عنهم إمرأة في نحو الخامسـة والثلاثين ، واندفعت نحو ايللي ، وهي تهتف قائلـة :

– من أرى ؟. مـا كنت أتوقع هـذا ؟. ايللي جيوتمان ؟. ماذا تفعلـين هنا ؟ يا لها من مفاجـأة !. هل تشتركين في رحـلة سياحية ؟

أجابت ايللي :

– كلا ، ولكني أقيم هنا منذ أيام .

– عجباً .. يسرني انني رأيتك حقاً .. وكيف حـال كورا ؟.. أهي معك ؟

– كلا ، إنها في سالزبورج .

– حسناً .. حسناً ..

وإذ تحولت المرأة ونظرت الي مستفهمة قالت ايللي في هدوء :

– اقدم لك مستر روجرز . مسز بنتجتون .

– كيف حالك يا مستر روجرز ؟. هل ستبقين هنا كثيراً ؟
– كلا . إني راحلة غداً .
– أوه . معذرة يا عزيزتي . يجب ان أذهب والآن وإلا فقدت جماعتي ، ثم انني أريد ان أسمع ايضاحات الدليل . إنه لأمر شاق إلى درجة اني أشعر بالاعياء والارهاق آخر اليوم .. اليست هناك فرصة للقائنا وتناول شيء من الشراب ؟
- ليس اليوم ، فنحن ذاهبان للنزهة .

أسرعت مسز بنتجتون بالانصراف لكي تلحـق بجماعتها . وكنا نصعد درجات السلم قبل ان نلتقي بها فتحولنا وهبطنا .

وقالت ايللي :
– حسنا .. هذا يحسم المسألة
– أية مسألة؟

لم تنطق ايللي على الفور ، بل لزمت الصمت دقيقة او دقيقتين ثم قالت :
– يجب ان أكتب الليلة
– لمن ؟
– أوه !. لكورا ! وللعم فرانك !. وأظن انه يجب ان أكتب للعم أندرو كذلك .
– ومن هو العم أندرو ؟ لم أسمعك تذكرين هذا الاسم قبل اليوم .

– هو أنـدرو ليبنكوت .. وهو ليس عمي في الواقع .. ولكنـه الوصي علي أو القيم ، او سمـه ما تشاء .. وهو محـام .. محام معروف .
– وماذا تنوين ان تقولى لهم ؟

– سأقول لهم إنني تزوجت ، فإني لم استطع ان أقول لمسز بنتجتون بغتة « دعيني أقدم لك زوجي » .. فلو اني فعلت لأصيبت بصدمة كبيرة

وبدهشة أكبر ، وصاحت : « ولكنني لم أسمع انك تزوجت.. فكيف حدث هذا ؟ حدثيني بالأمر يا عزيزتي .. الخ .. الخ .. » من الأصوب ان تكون زوجة أبي والعم أندرو اول من يعلما !

– وماذا سيقولون ؟ او ماذا سيفعلون ؟

أجابت في جمود :

– سوف يثورون ويهيجون ، ولكن لا يهمني ذلك . وأظنهم من الحكمة بحيث يدركون ، يجب ان يتم بيننا لقاء .. نستطيع ان نذهب إلى نيويورك .

ورمقت بصرها إلي في تساؤل قائلة :

– هل يروق لك ذلك ؟

– لا ! لا يروق لي ذلك أبداً .

– عليهم أن يأتوا إلى لندن إذن .. جميعهم او بعضهم . لا أدري إذا كان ذلك يروق لك أكثر .

– بل انه لا يروق لي كذلك فإني اريد ان أكون معك وان أرى بيتنا يعلو حجراً فوق حجر بمجرد أن يصل سانتونيكس هناك .

– سوف يكون ذلك ، لن يأخذ منا لقاؤنا بالأسرة وقتاً طويلاً على كل حال . من المحتمل ان نلتقي بهم جميعاً . من المحتمل ان نستقل الطائرة إلى أميركا ، كما ان من المحتمل أن يأتوا هم الينا .

قالت ايللي في تفكير :

– وهناك أمك .

– بحق السماء يا ايللي ، لا تحاولي تدبير أي لقاء بين أمك ببذخها وترفها ، وأمي بفقرها المدقع !. ماذا تتوقعين ان تقول كل منهما الأخرى ؟.

– لو ان كورا كانت أمي فعلا ، فلا ريب ان كلا منهما كانت تجد

الكثير لكي تقـوله للأخرى .. أرجو ألا تزعجك ، مسألة الفـوارق الطبقية !

– مهما يكن من أمر فإني ارجو ان تدعي أمي وشأنها وألا تقحميها في اجتماع أسرتك

– لم أقترح إقحام أي شخص في أي شيء ، ولكنني أعتقد يا مايك انـه يجب ان أمضي لزيارة أمك عند عودتنا لإنجلترا .

فانفجرت أقول :

– كلا !

نظرت إلي وقد جفلت فقالت :

– ولم لا يا مايك ؟ ألا ترى أني إذا لم أذهب لزيارتها فإن ذلك يكون وقاحة مني ؟ هل قلت لها انك تزوجت ؟

– لم أقل لها ذلك بعد .

– ولماذا ؟

فلم أنطق فعادت تقول :

– اليس من الأوفق ان تقول لها اننا تزوجنا ، وان ترافقني لزيارتها حين نعود لانجلترا .

قلت من جديد :

– كلا .

وتكلمت في هدوء هذه المرة ، ولكنني كنت بادي التحفظ ، وقالت ايللي في بطء :

– ألا تريد ان التقي بها ؟

كانت هذه هي الحقيقة طبعاً ، وأحسب أنها كانت من الوضوح بحيث تكفي ، ولكنها كانت آخر شيء أستطيع توضيحه ، ولم أر كيف اوضح لها ذلك ، فقلت :

– أرجو يا ايللي .. لا تذهبي لزيارة أمي .
– لا زلت أعتقد انه يكون أمراً غير لائق إذا لم أذهب .
– كلا ، ليس الأمر كما تقولين .. إني أدرى بأمي وأعرف بها منك .. انها معتلة ، وتستغلظ لك القول كما ذكرت .
– ولكن يجب ان تخبرها بأنك تزوجت .
– حسناً ، سأفعل .

وخطر لي ان اسهل شيء هو ان اكتب لأمي وانا لا ازال في الخارج ، ففي هذه الليلة ، وبينما كانت ايللي تكتب للعم اندرو وللعم فرانك ولزوجة ابيها كورا فان ستويفيزانت ، كتبت انا الآخر رسالة لأمي . وكانت رسالة قصيرة هذا نصها :

« أمي العزيزة

« كان يجب ان اخبرك بذلك قبـــل اليوم ولكن راودني شيء من القلق منعني من الكتابة اليك . إني تزوجت منذ ثلاثة اسابيع ، وقد جاء الأمر فجأة . وهي فتاة جميلة ومليحة جداً وعلى جانب كبير من الثراء ، وهذا وحده يسبب لي بعض الارتباك ، سنبني لنا بيتاً في مكـــان ما في الريف ، ولكننا نطوف حالياً بأوروبا ، تمنياتي لك . »

« إبنك مايك »

وكانت نتيجة مكاتباتنا الليلة مختلفة بعض الشيء ، فقد لزمت أمي الصمت أسبوعاً كاملاً ، قبل ان ترد علي وترسل إلي خطاباً ينم عما يعتمل في داخلها فقد كتبت تقول :

« عزيزي مايك

« سرني خطابك ، وأرجو ان تكون سعيداً جداً . »

« امك التي تحبك »

وكما تنبأت ايللي نزلت بنا المتاعب نزول الصاعقة ، واخذتنا في شبكة

بفيضة متداخلة من المشاكل ، فقد دهمنا الصحفيون الذين سعوا وراء اخبار زواجنا الرومانتيكي ، ونشرت الصحف المقالات الضافية عن وريثة جيوتمان وهربها الخيالي وجاءتنا رسائل كثيرة من المصارف والمحامين . وتم اخيراً لقاء رسمي ، التقينا قبله بسانتونيكس بخصوص اراضي الغجر ، ففحصنا الرسومات وتناقشنا في بعض الأمور ، وبعد ان فرغنا من هذه الناحيـــة عدنا إلى لندن ، ونزلنا في جناح كبير بفندق كلاربدج . وتأهبنا ، إذا جاز لنا القول لمواجهة الأعداء .

وكان اندرو ليبنكوت اول من أتى ، وكان شيخاً متقدماً في السن جافي الطباع شديد الاناقة ، طويل القامة نحيل العود دمث الاخلاق ، من مواليد مدينة بوسطون يتكلم الانجليزية بطلاقة ، وقد اتصل بنا تليفونياً ، وتواعدنا على اللقاء في الثانية عشرة وكانت ايللي شديدة الانفعال وإن كانت قد حاولت ان تخفي انفعالها .

طبع مستر ليبنكوت قبلة على كل من وجنتي ايللي ثم بسط يده إلي وقال وهو يبتسم إبتسامة مهذبة :

– حسناً يا عزيزتي ايللي .. انك رائعة ، بل اقول انك متألقة .

– كيف حالك ايها العم اندرو ؟ كيف اتيت ؟ أبالطائرة ؟

– كلا ، اتيت على ظهر الباخرة كوين ماري ، وكانت رحــلة ممتعة .. أهذا زوجك ؟

– نعم هذا هو مايك .

وحاولت إثبات وجودي فقلت :

– كيف حالك يا سيدي ؟

ثم سألته إن كان يريد كأســا من الشراب ، ولكنه رفض في رقة وجلس في مقعد وثير ، وراح ينقل عينيه بيني وبين ايلــــلي وهو لا يزال يبتسم ثم قال :

– حسنا .. إنكما تسببتما في كثير من المشاكل.. وهي مشاكل رومانتيكية على كل حال .

قالت ايللي :

– إنني آسفة .. آسفة حقا .

فقال ليبنكوت في جفاء :

– آآسفة انت حقا ؟

– حسبت ان هذه افضل طريقة .

– لا أوافقك على هذا الرأي يا عزيزتي .

– ولكنك تعلم ايها العم اندرو ، اني لو كنت سلكت الطريقة الاخرى للقيت اعتراضا كبيراً ؟

– ولماذا تلقين مثل هذه المعارضة الكبيرة ؟

– إنك تعرفهم جيداً .

وأردفت تقول :

– وانت ايضا ، كنت ستقف ضدي ، فقد جاءني خطابان من كورا واحد بالأمس وآخر صباح اليوم .

– يجب ان تتوقعي شيئا من الصخب والثورة يا عزيزتي، فهذا امر طبيعي في مثل هذه المناسبة .

– ولكنني حرة ، أتزوج من اشاء واين اشاء .

– هذا رأيك انت يا عزيزتي .. ولكن ما من امرأة في العالم تتحرك على هذا العمل .

– الحق اني وفرت كثيراً من المتاعب للكثيرين .

– يمكننا ان نقر بذلك .

– وهي الحقيقة ، اليس كذلك ؟

– انك تسببت في خيبة امل كبيرة ، وعاونك في ذلك شخص كان من

الافضل له الا يفعل .

إصطبغ وجهها وقالت :

– هل تعني جريتا ؟. إنها إنمـــا امتثلت لارادتي ، والجميع حاقد عليها لذلك .

– طبعا ، فما كان لك او لها ان تتوقعا غير ذلك. فقد كانت تشغل مركزاً يتطلب ثقة خاصة .

– إني راشدة واستطيع عمل ما اريد .

– انا اتحدث عن تلك الفترة التي لم تكوني قد بلغت من الرشد خلالها بعد، لان الخدعة بدأت منذ ذلك الوقت ، اليس كذلك .

قلت :

– لا يجب ان تلوم ايللي يا سيدي، ففي ذلك الوقت كنت أجهل كل شيء عن طريقة معيشتها ، ونظراً إلى ان أفراد الأسرة كلهم كانوا في بلاد أخرى فإنه لم يكن من السهل علي الاتصال بهم .

قال مستر ليبنكوت :

– إني أعلم ان جريتا أرسلت بعض الرســائل إلى مسز ستويفيزانت وزودتها بمعلومات غير صحيحة ، طبقاً لتعليمات ايللي ، وقـامت إذا جاز لي القول بعمل له فعاليته . هل التقيت بجريتا اندرسون يا مايكل ؟. أستطيع أن أدعوك بمايكل ما دمت قد أصبحت زوجاً لايللي .

– طبعاً .. باستطاعتك ان تدعوني باسم مايكل .. كلا .. إني لم التق بمس اندرسون .

– حقاً ؟ إنه امر يثير الدهشة .

ونظر إلي مستغرباً ثم قال :

– كنت أعتقد انها حضرت زواجكما !

فقالت ايللي :

– كلا . جريتا لم تكن حاضرة .

والقت إلي نظرة عتـاب ، في حـين بقيت مكاني وأنا لا أشعر بأي ارتياح .

وكانت عينا مستر ليبنكوت لا تزالان تحدقان فيّ في تفكـير بحيث أحسست بالارتباك وبدا كأنه يريد قول المزيد غير انه لم يلبث ان غير رأيه وقال بعد لحظة او لحظتين :

– أظن انه لا بد لك ، أنت وايللي ، أن تتحملا توبيخ أفراد الأسرة ونقدها !.

قالت ايللي:

– أظنهم سينزلون علي جميعاً نزول الصاعقة .

قال مستر ليبنكوت :

– هـذا أمر كبير الاحتمال . ومن ناحيتي أنا ، فقـد مهدت لكما الطريق .

فقالت وهي ترميه بابتسامة :

– إذن فأنت في صفنا أيها العم أندرو ؟

– من العسير جداً ان يعترض محام نابه على مثل هذا الأمر ، فقد علمتني التجارب أن من الحكمة قبول الأمر الواقع . إن كلا منكما وقع في حب الآخر وتزوجتما ، وأعرف يا ايللي انك اشتريت قطعة من الأرض في جنوب انجلترا ، وإنكما تشيدان عليها بيتاً للإقامة به .

فقلت في شيء من الغضب :

– نعم ، إننا نريد ان نقيم بانجلترا .. فهل لديك أي اعتراض على هذا ؟. إن ايللي تزوجت مني ، وبزواجها اكتسبت الجنسية الانجليزية ، وليس هناك ما يمنعها من الاقامة معي بانجلترا .

– ليس هناك ما يمنعها من ذلك على الاطلاق .. ليس هناك ما يمنع فينيلا من

الاقامة في البلد الذي تختاره ، وان يكون لها بيت في أكثر من دولة .. إن لك بيتاً في ناسو كما لا شك تعلمين يا ايللي .

– كنت اعتقد انه ملك لكورا ، فهي تتصرف دائماً كما لو كان ملكاً لها .

– ومع ذلك فأنت المالكة الشرعية له ، كما تملكين كذلك بيتاً في لونج آيلاند ، ولك ان تقيمي فيه في أي وقت تشائين .. بل انك تملكين عدداً كبيراً من حقول البترول في الغرب .

كان يتكلم في صوت مهذب رقيق ، ولكنني أحسست بأن كلماته الأخيرة كانت موجهة إلي بطريقة غير مباشرة ، فهل كانت هذه طريقته لخلق الشقاق بيني وبينها ؟ لم أكن واثقاً من ذلك .

ومهما كان من أمره ، فما كان جميلاً منه ان يذكر لرجل فقير ان زوجته تملك في أنحاء المعمورة قصوراً شتى ، وانها على جانب كبير من الثراء . ولولا لهجته لاعتقدت انه يحصر أملاكها وثروتها عامداً لأني إذا كنت أسعى وراء النفقة فإن طريقته هذه ستجعلني أظهر على حقيقتي ويسيل لعابي .. ثم قال يخاطبها :

– قد أحضرت معي بعض الأوراق والمستندات القانونية ، يجب ان ندرسها معاً ، وان توقعي على الكثير منها .

– نعم طبعاً أيها العم اندرو .. في أي وقت تشاء .

– هو ذاك ، لا داعي للعجلة ، فلدي أعمال اخرى في لندن ، وسأبقى هنا نحو عشرة أيام أخرى .

عشرة أيام ! إنها مدة طويلة !. وددت ألا يبقى مستر ليبنكوت هذه الأيام العشرة ، فهو لم يبد نحوي ما يكفي من الود ، وإن كان قد أبدى إشارة يفهم منها بأنه يتحفظ في حكمه على بعض النقاط . غير اني تساءلت في تلك اللحظة هل هو عدوي حقاً ، وإذا كان كذلك فإنه ليس من نوع الرجال

الذين يظهرون عواطفهم .

واستطرد يقول :

-- حسناً .. الآن وقد التقينا وتفاهمنا بخصوص المستقبل ، إذا جاز لنا هذا القول فإني احب تبادل الحديث مع زوجك .

فقالت ايملي :

- باستطاعتك التحدث معه هنا !

ونطقت بعبارتها هذه في انفعال وحدة ، فوضعت يدي على ذراعها وقلت :

- لا تخافي يا عزيزتي .. إنك تبدين كالدجاجة الأم التي تخاف على فراخها ..

ومضيت بها في رفق ، نحو الباب الذي يؤدي إلى المخدع ، وأنا أقول :

- كل ما في الأمر ان العم اندرو يريد ان يكون عني رأياً ، وهذا من حقه .

ودفعتها من خلال الباب إلى غرفة المخدع ، ثم أغلقت الباب وعدت إلى مكاني .

وكانت غرفة الجلوس فسيحة جميلة ، فأخذت مقعداً وجلست أمامه وقلت له :

- حسناً .. تحدث .

- شكراً لك يا مايكل .. قبل كل شيء اريد ان أقول لك اني لست عدوك أبداً كما قد تبادر لذهنك .

- حسناً .. يسرني سماع هذا منك .

غير اني مع ذلك لم أكن واثقاً من قولي هذا .

وعاد مستر ليبنكوت يقول :

ـ دعني أتحدث بصراحة .. بل سأكون أكثر صراحة مما كنت أمام هذه الطفلة العزيزة التي تحت حمايتي ووصايتي والتي أكن لها كل الحب .. وقد لا تقدر ذلك يا مايكل ، غير اني اقول لك ان ايللي من أكثر الفتيات رقة وطيبة قلب .

ـ لا تخف من هذه الناحية ، فإني أحبها أنا الآخر كل الحب .

قال مستر ليبنكوت في لهجته الجافة :

ـ ليس هذا هو نفس الشيء ، أرجو إن كنت تحبها حقاً ان تدرك مدى قدرتها وإحساسها وسرعة تأثرها بأي شيء .

ـ سأحاول ذلك . ولا أظن اني سأبذل جهداً كبيراً في هذا السبيل ، فإنها رائعة حقا .

ـ ولهذا سأستمر فيما أنا مقدم عليه ، وسأحدثك بصراحة . انك لست الشاب الذي كنت أتمناه زوجا لها ، فقد كنت أتمنى رؤيتها تتزوج الشاب الذي تختاره أسرتها لها ، ومن مستواها بالذات .

ـ تريد ان تقول شابا نبيلاً !

ـ كلا ، ليس هذا فحسب .. بل شاب من طبقتها ، ومن نفس مستواها الثقافي والاجتماعي كي يكون حريا بها . ولا أعني بقولي هذا ان يكون من ذوي النفخة الكاذبة . ومهما كان من أمر فإن هرمان جيوتمان بدأ حياته عتالاً في الجمرك ومات وهو من أغنى رجال أمريكا .

ـ ربما أستطيع أن أحذو حذوه . ربما أصبح بدوري من أغنى أغنياء انجلترا .

ـ كل شيء جائز .. ألديك مثل هذا الطموح ؟

ـ إني أعني المال فحسب ، فإني أود ان .. أود ان أنجح وان أفعل اشياء و ..

وتوقفت متردداً فقال :

– أرى ان لديك طموحا وهذا شيء جميل ، نعم انه شيء جميل .

– إني بدأت بداية غريبة ، بدأت من أسفل السلم ، أنا لست شيئا ، انا نكرة ولا يمكن ان أدعى غير ذلك.

أومأ مستر ليبنكوت برأسه وقال :

– جميل منك مثل هذه الصراحة واني أقدرها منك يا مايكل .. أنا لا تربطني بايللي صلة قربى ، ولكني وصي عليها ، أقامني جدها وصياً عليها ، وأنا الآن أدير ثروتها وأشرف على كل استثماراتها، وأتحمل نتيجة لذلك مسؤوليات جمة وهذا أريد ان أعرف عن الزوج الذي وقع عليه اختيارها كل ما أستطيع معرفته .

– حسناً ، أظن انه باستطاعتك ان تتحرى وان تعرف عني كل ما تشاء بسهولة .

– هو ذلك . هذا أمر هين بالنسبة لي ، وهو فوق ذلك إجراء سليم ، من الحرص ان أقوم به . غير اني احب ان اعرف الآن كل ما أستطيع معرفته من بين شفتيك أنت .. احب معرفة كل شيء عن حياتك حتى اليوم .

لم يرق لي ذلك طبعاً ، وأظنه كان يعلم ذلك . وإنصافاً للواقع لا أحد يروق له هذا الموقف . وان من طبيعة المرء انه إذا تكلم عن نفسه ، فإنه يذكر خير ما فيه .

رأيت إذن ان أتباهى ببعض الفتية الذين عرفتهم وان أشيد ببعض أصحاب العمل الذين عملت معهم ، ومهما كان الأمر فإن في كل منا جانباً من الخير وجانباً من الشر ، فليس من المصلحة ان تطلع الناس على جانب الشر الذي فيك ، وان تضرب على هذا الأمر .

كلا ، إن من الخير لي طبعا ذكر خير ما في ، وان أعدد ما فعلت من حميد الفعال حتى اليوم ، غير اني لم أتوقع ابداً بأن هذه الطريقة لن تفلح

مع العم أندرو ، لان في مقدوره كشف امري إذا تحرى عني ، ولم أكن واثقا من انه قد يفعل . ومهما كان الأمر فقد رأيت ان أذكر له الحقيقة .. والحقيقة العارية .

بدأت بالبدايات الحقيرة التي تستثير الازدراء ، فذكرت له ان والدي كان يدمن الشراب ، وان والدتي إمرأة طيبة كدحت في الحياة لتقوم على تربيتي وتعليمي ، ولم أكتم عنه اني تمرغت في التراب ، وإنني لم أستقر في أي عمل . واستمع العم اندرو إلي في صبر وأناة ، وهو يشجعني بابداء بعض الملاحظات من وقت لآخر . وكانت ملاحظاته هذه عبارة عن أسئلة كان يمكن ان أقع في الفخ الذي يرسمه لي بأن أوافقه عليها وان أسارع لإنكارها .

نعم ، خامرني إحساس بأن من الخير لي ان اكون حذراً ، وان أتوخى الحرص في الرد على أسئلته ، ولم تمر عشر دقائق حتى تملكني السرور والابتهاج وانا أراه يضطجع في مقعده إلى الخلف، فقد كان ذلك بادرة على ان الاستجواب قد قارب على الانتهاء . فقال :

– إنك تميل في حياتك إلى الاندفاع في المغامرات يا مستر روجرز .. أعني يا مايكل . وهذه طريقة غير سيئة، حدثني بالمزيد عن هذا البيت الذي تبنيه انت وزوجتك .

– حسنا . إنه يقع على مقربة من مدينة ، تعرف باسم ماركيت شارويل .

– نعم ، اعرف موقعه ، وبهذه المناسبة فإني ذهبت لرؤيته .. كان ذلك بالأمس على وجه التحديد .

أجفلت قليلا ، فقد كشف لي قوله هذا انه رجل ملتو غير مستقيم بمعاملاته ويقدم على اساليب ملتوية لا تخطر على بال احد .

ثم قال :

- أرجو ان تتحقق كل امانيك. استطيع ان اقول الك على كل حال انك حققت انت وايللي صفقة طيبة بشرائكما الأرض .

كان الرجل العجوز من اللباقة فجمع بيني وبين ايللي وهو يتكلم عن أراضي الفجر ، ولم يقل انها اشترتها بمفردها ، وقال :

- إني تشاورت مع مستر ادفورد .

قطبت حاجبي وقلت :

-- مستر ادفورد ؟

- نعم . مستر ادفورد المستشار بمكتب ريس وكراوفورد للاستشارات القضائية والشؤون القانونية . ومستر ادفورد هو الذي عقد صفقة الشراء ، وهو محام مشهور ، وارى ان هذه الأراضي بيعت بثمن بخس . وقد أثار ذلك دهشتي ، فأنا عليم بأثمان الأراضي في هذا البلد ، وقد دهش مستر كراوفورد نفسه لحصوله عليها بذلك الثمن البخس ، واني لأتساءل إذا كنت تعلم السبب في ذلك ، فإن مستر كراوفورد لم يستطع ان يبرر لي ذلك . بل اني أستطيع ان اقول انه ارتبك ارتباكا ملحوظا حين القيت عليه هذا السؤال .

- اوه ، حسنا ، يقال ان هناك لعنة تلازم هذه الأراضي .

- معذرة يا مايكل ، ماذا تقول ؟

فقلت اوضح له الأمر :

- هناك لعنة تلازمها يا سيدي ، لعنة الغجر او شيء من هذا القبيل .. ولا غرو فهي معروفة باسم اراضي الغجر .

ونظر إلي في فضول واردف يقول وهو يبتسم إبتسامة رقيقة :

- ومع ذلك ، فلم يأخذكما الخوف من هذه اللعنة ، لا انت ولا زوجتك ؟.

-- كلا طبعا ، لم نصدق مثل هذا الهراء ، إن الأمر بالنسبة لنا هو اننا

سعيدان لحصولنا على هذه الأراضي بهذا الثمن البخس .

وما نطقت بهذه الكلمات حتى خطر لي خاطر مفاجىء ورأيت ان هذه السعادة إنما تنبع من جانب واحد ، لان ايلي مع كل مـا تملك من نقود وعقار ما كان يهمها في شيء ان تشتري هذه الأرض بثمن بخس او بثمن مرتفع . غير اني لم البث ان تحققت اني مخطىء في هـــذا الرأي ، مهما يكن من امر ، فإن جدها بدأ حياته عتالاً في الجمارك ، ومات وهو مليونير ، واي شخص من هذا الطراز يحب ان يشتري بالثمن البخس فيبيع بالثمن المرتفع .

وقال مستر ليبنكوت :

– حسنا .. انا لا اؤمن بالخرافات .. ولكن المنتظر ان بيتكم سيكون غاية في الروعة .

وتردد لحظة ثم قال :

– كل ما ارجوه حين تنتقلا إلى بيتكما هذا للاقامة فيه الا تسمع ايلي كثيراً عن هذه القصص التي تدور حول الموضوع .

– سأحرص على الا يصل إلى سمعها اي شيء عنه ، وان كنت اعتقـد ان احداً لن يذكر لها اي شيء عنه .

قال مستر ليبنكوت :

– إن سكان الريف مولعون بترديد القصص التي من هذا النوع ، ولا تنس يا مايك ان ايلي ليست صلبة مثلك وبالامكان التأثير عليها بسهولة .. بنوع ما .. وهذا ما يحملني اذكر ..

وأمسك دون ان يزيد ، ونقر باصبعه على المائدة دقيقة او دقيقتين ، ثم استطرد :

– سأطرق الآن موضوعا شاقا .. انك قلت لي منذ لحظات انك لم تلتق بجريتا اندرسون .

– نعم ، لم التق بها بعد ، كما سبق ان قلت لك .
– هذا غريب.. غريب جداً .
– ولماذا ؟.
ونظرت اليه مستفهماً فقال في بطء :
– كنت أعتقد انك ربما تكون واثقاً من انك التقيت بها من قبل .. ما الذي تعرفه عنها ؟
– كل ما أعرفه عنها هو انها أمضت بعضاً من الوقت مع ايللي .

– إنها تعيش مع ايللي منذ ان بلغت هـــذه الأخيرة السابعة عشرة من من عمرها ، وهي تشغل وظيفة تتطلب مسؤلية وثقة كبيرتـين .. أقبلت في بادىء الأمر إلى الولايات المتحدة بصفتها سكرتيرة ورفيقة .. تلازم ايللي حين تغيب مسز فان ستويفيزايث زوجة أبيها عن البيت وهو امر أستطيع ان اقول انه يحدث كثيراً .

ونطق بالعبارات الأخيرة في جفاء ثم أردف يقول :
– وأعتقد انها فتاة حسنة المنبت، جاءت بشهادات ممتازة ، نصف سويدية ونصف المانية ، وقد تعلقت ايللي بها كثيراً .
– هو ما اظن .

– أعتقد ان ايللي كانت شديـدة التعلق بها نوعاً ما .. وأظنك لا تعبأ بذلك .
– كلا ، ولماذا أعبأ ؟. وإنصافاً للحقيقة اقول حسناً ، خطر لي ذلك مرة او مرتين . فهي دائمة التحـدث عن جريتا والإعجاب بها .. حسناً .. أعـلم ان هذا ليس من شأني ، غـير اني مع ذلك سئمت هذا الأمر .

– ومع ذلك فهي لم تبد أي رغبة في ان تلتقي انت بجريتا .
– حسناً ، من العسير شرح ذلك ، ولكن الحقيقة انها اقترحت علي ذلك

مرة او مرتين ، وبطريقة معسولة . غير اننـــا كنا في ذلك الوقت شديدي التعلق والاهتمام كل منـــا بالآخر .. وفوق ذلك ، فإنني أعتقد اني لم أشأ حقاً ، ان التقي بجريتا حتى اليوم .. لم أشأ ان يشاركني أحـد في ايللي !.

– إنني أرى .. نعم ، اني .. ألم تقترح ايللي ، ان تحضر جريتا زواجكما ؟

– بل اقترحـت ذلك .

– ولكن لم تشأ انت ان تأتي ؟. لماذا ؟

– لا أدري .. الحق إني لا ادري .. كل ما هناك اني أحسست ان هذه الجريتا .. هذه الفتاة .. او هذه المرأة التي لم يسبق لي ان التقيت بها تتدخل دائماً في كل شيء .. وتدبر حيـــاة ايللي .. ترسل البطاقات البريدية والرسائل وترد عليها نيابة عنها .. تدبر الخطط البارعة بخصوص رحلات وهمية ، وتقدمها للعائلة .

صفوة القول ، احسست ان ايللي تعتمد على جريتا في كل شيء ، وانها تتركها تدبر لها حياتها وفوق ما تشتهي هي وما تريد ، وإني . اوه !. إني آسف يا مستر ليبنكوت .. ولكن لعلني مـــا كان يجب القول اني أغار منها .. مهما كان من امر ، فقد انفجرت وقلت لها إني لا اريد ان تحضر جريتا زواجنا ، وإننا نحن الذين نتزوج ، ولا شأن لأحد بنا . ولهذا ذهبنا إلى مكتب الزواج ، وشهد على زواجنا الموظف الذي يقوم بادارة المكتب ، والفتـــاة التي تطبع على الآلة الكاتبة ، واستطيع القول اني كنت من الخسة بحيث رفضت جريتا ، وكان عذري هو اني اردت ايللي لي وحدي .

– إني أفهم .. نعم .. وأعتقد انك كنت حكيما يا مايك ، هذا إذا جاز لي قول ذلك .

فقلت في خبث :

– ارى انك لا تميل إلى جريتا انت أيضا .

– لا أدري كيف تقول « انت ايضا » مع انك تقول انك لم تلتق بها حتى اليوم .

– كلا ، لم التق بها ، غير اني سمعت كثيراً عنها بحيث استطيع ان اكون لي صورة عنها ، وان أحكم عليها حكما صادقا .. اوه !.. حسنا ، سمها غيرة عمياء ، ولكن لماذا لا تحب جريتا ؟

أجاب مستر ليبنكوت :

– إني تحدثت بغير أي تحامـل ، ولكنك انت زوج ايللي .. اني لا هم لي إلا سعادتها ، وأعتقد ان نفوذ جريتا عليها امر غير مرغوب فيه .. فجريتا شديدة الاعتداد بنفسها .

– هل تظن انها ستحاول بذر الشقاق بيننا ؟

– بل اظن انه لا حق لي بقول شيء من هذا القبيل .

وراح ينظر إلي بحذر وهو يرمش بعينيه كما تفعل السلحفاة العجوز المتغضنة ولم أدر ماذا أقول ولكنه قطع حبل الصمت فقال وهو ينتقي كلماته في شيء من الحرص :

– ألم تقدر زوجتك ان تقيم جريتا معكما ؟

– لن يحدث هذا إن استطعت الحيلولة دونه .

– آه ! هذا هو شعورك إذن .. ارى ان هـــذه الفكرة ، كانت موضع بحث .

– ذكرت ايللي شيئا من هذا القبيل ، ولكننا تزوجنا حديثا يا مستر ليبنكوت وأريد بيتنا ، بيتنا الجديد لنا وحدنا .. اظن ان جريتا ستأتي طبعا وتقيم بيننا بعض الوقت ، وهذا طبيعي .

– إنه امر طبيعي كما تقول ، ولكن مما لا ريب فيه هو ان جريتا

ستكون في موقف عسير بالنسبة للاحتفاظ بوظيفتها .. يعني المهم ليس ما تقترحه ايلي ، بل المهم هو ما قد يفعله اولئك الذين ألحقوها بخدمتهم وخانت ثقتهم .

– هل تعني انك لا انت ولا مسز فان .. أيا كان اسمها لن تمنحاها شهادة تمينها على الالتحاق بوظيفة أخرى .

– سنفعل ذلك في حدود التدابير القانونية .

– وهل تعتقدها تأتي لانجلترا للاقامة معنا .

– لا أريد التحامل ضدها كثيراً .. ومهما كان فإن كل ما قلته عنها إنما هو رأيي الشخصي .. إني لا اقر بعض الأمور التي اقدمت عليها ، ولا الطريقة التي تصرفت بها ، واظن ان ايلى ، على الرغم مما عرفت به من رقة القلب والشمائل لن ترضى بتحطيم مستقبل جريتا ، وقد تصر على قدومها للاقامة معكما .

قلت في بطء ، وقد بدا على الانزعاج بعض الشيء ، واظن ان ليبنكوت قد لاحظ ذلك :

– لا اظن ان زوجتي ستصر على ذلك ، ولكن ألا نستطيع .. أعني .. الا نستطيع منحها معاشا .

فرد مستر ليبنكوت :

– لا يمكن تقديم الأمر بهذه الصورة ، فهناك قوانين ولوائح خاصة تنظم المعاشات ، وجريتا ما زالت في ريعان الشباب .

وتابع يقول باستنكار مستهجنا :

– واستطيع القول إنها مليحة .. بل هي جميلة .. يفتتن بها الرجال .

– إن كان الأمر كذلك فسوف تتزوج ، وإن كانت جميلة حقا كما تقول فلماذا لم تتزوج حتى الآن ؟

– لقد افتتن بها الكثيرون كما اعتقد ، ولكنها لم تشجع احداً منهم ، وعلى كل حال ، فإني اظن ان اقتراحك معقول ، واعتقد اننا نستطيع تدبير الأمر بحيث لا نجرح شعورها ، فانه ليبدو من الطبيعي ان ايللى ، وقد بلغت سن الرشد وتزوجت بمعونتها تستطيع ان تمين لها معاشا عرفانا منها بالجميل .

ونطق مستر ليبنكوت بالكلمتين الأخيرتين وهو متجهم الأسارير ، فقلت بابتهاج :

– حسنا ، الأمر إذن على ما يرام .

– مرة اخرى اقول لك انك متفائل .. فلنأمل ان تقبل جريتا هذا الحل .

– ولماذا لا تقبله ؟. ستكون حمقاء إن لم تفعل .

فقال مستر ليبنكوت :

– لا ادري .. إنه يكون امراً غريبا إن لم تقبل ، وسوف تبقى بينهما اواصر الصداقة طبعا .

– هل تظن ، ولكن ماذا تظن ؟

– اوه .. وددت لو يزول سلطانها على ايللى .

ونهض مستر ليبنكوت وتابع يقول :

– ارجو معاونتي وبذل قصارى جهدك كي نفلح في هذا .

– لك ان تعتمد علي ، لان آخر شيء اريده هو ان تقيم جريتا بين ظهرانينا .

– من يدري ، ربما تغير رأيك بعد رؤيتها .

– لا اعتقد ذلك ، فاني لا احب النساء المدبرات مهما بلغت كفاءتهن ومهما بلغ جمالهن .

– اشكرك يا مايكل ، إذ اصغيت إلي بكل هذا الصبر ، وارجو ان

بتناول العشاء معي ، انت وزوجتك يوم الثلاثاء القادم إن امكن .. ربما تأتي كورا فان ستويفيزايت وفرنك بارتون اثناء ذلك .

– اظن لا مناص لي من مقابلتهما ؟

– اوه ، نعم .. هذا امر لا بد منه .

فابتسم لي ، وبدت ابتسامته عندئذ أقرب منها للصدق من أي وقت مضى وتابع يقول :

– يجب ألا تزعج نفسك كثيراً لأن كورا ستقسو عليك ، وسيغلظ لك فرنك القول ، أما روبن فقد لا يأتي في الوقت الحاضر .

لم أدر من هو روبن هذا ، وخطر لي انه ربما هو قريباً آخر .

ومضيت إلى الباب الفاصل ففتحته قائلاً :

– تعالي يا ايلي . فقد انتهى الاستجواب .

فأقبلت ايلي وأخذت تنقل بصرها بيننا ، ثم مضت إلى مستر ليبنكوت وقبلته قائلة :

– أيها العم العزيز أندرو . أستطيع ان أرى انك كنت ظريفاً مع مايكل .

– حسناً يا عزيزتي ، لو اني لم أكن ظريفاً مع زوجك لما لجأت إلى خدماتي كثيراً في المستقبل ، أليس كذلك ؟. يحق لي ان أزجي ببضع كلمات من النصح من وقت لآخر . فأنتما ما زلتما في مقتبل العمر ، لم تخبرا الحياة بعد .

قالت ايلي :

– حسناً . سوف نصغي اليك في صبر وأناة .

– والآن يا عزيزتي ايلي . أريد ان اتبادل بضع كلمات معك إذا شئت .

فقلت :

– حان دوري كي أخرج أنا الآخر .

ومضيت إلى المخدع وأغلقت الباب في حرص ، ولكني لم أحكم إغلاقه عامداً ، فأنا لم أكن مهذباً كايللي ، فأردت التحقق إن كان لمستر ليبنكوت وجهان ، فلم تكن بي حاجة لأن أسمع أي شيء ، فقد زودها ببضع نصائح وقال لها إني قد أجد من العسير ، وأنا رجل فقير أن أتزوج بامرأة ثرية ثم تكلم معها وسبر غورها كي يعرف إن كانت مستعدة لتجري معاشاً لجريتا . وتقبلت فكرته في لهفة ، وقالت انها كانت تريد ان تطلب منه ذلك ، واقترح عليهما عندئذ منح كورا معاشاً إضافياً وتابع :

– ليس هناك أي داع يدعوك ان تفعلي هذا طبعاً ، فهي تتقاضى معاشاً طيباً من أزواجها السابقين ، كما تتقاضى دخلاً محترماً من ثروة جدك .

– ومع ذلك فأنت ترى ان أعطيها معاشاً إضافياً ؟

– لا أظن ان هناك اي قانون يرغمك على ذلك ، ولكني أعتقد انك إن فعلت هذا فسوف تكتسبينها إلى صفك وتوفرين على نفسك ما قد تجره عليك من متاعب وتسكتين لسانها . ويمكنك منحها المعاش الإضافي بطريقة تمكنك من استرجاعه متى تشائين . . وإن وجدت انها لا تزال تطلق الاشاعات المغرضة الخبيثة عن مايك ان عنك ، فان بمجرد معرفتها ان باستطاعتك استرجاع ذلك المعاش ستجعلها تتحفظ في مسلكها بحيث تمتنع عن الاشاعات المغرضة التي تعرف كيف تطلقها .

قالت ايللي :

– طالما حقدت كورا علي ، وقد كنت دائماً على ثقة من ذلك .

وتابعت تقول في حياء :

– انك تحب مايك ايها العم أندرو ، أليس كذلك ؟

فأجاب مستر ليبنكوت :

– أظن انه شاب وسيم جذاب ، واستطيع ان أفهم الآن لماذا أقدمت

على الزواج منه .

وكان هذا القول يدل على كرمـه ورقة طبعه . ولم أكن على دربه في هذه الناحية حقاً ، فأغلقت الباب في رفق ولم تلبث ايللي ان جاءت تبحث عني بعد لحظات .

ووقفنا معاً نودع العم اندرو حين طرق الباب ودخل أحد الخدم وبيـده برقية ، ففضتها وما كادت تفعل حتى هتفت تقول :

– إنها من جريتا .. إنها قادمة إلى لندن الليلة ، وستأتي لزيارتنا غداً . ما أجمل هذا !

ونظرت الينا معاً وتابعت :

– اليس كذلك ؟

ورأت أمامها وجهين متجهمين وسمعت ردين مهذبين .

قال احدهما :

– نعم ، حقاً يا عزيزتي .

في حين قال الآخر :

– بالطبع .

الفصل العاشر

خرجت في اليوم التالي باكراً لأشتري بعض ما نحتاج اليه ، وعدت إلى الفندق متأخراً على غير ما كنت أتوقع ، فألفيت زوجتي جالسة في غرفة الاستقبال وبصحبتها فتاة شقراء طويلة القامة ، هي جريتا وكانتا غارقتين في حديث ودي مستمر .

وأنا لا أحسن وصف الناس ، ولكني مع ذلك سأحاول وصف جريتا ، فأبدأ بالقول انها مليحة كما قالت ايللي ، بل أزيد فأقول انها جميلة ، وإنها على قسط وافر من الجمال ، كما قال مستر ليبنكوت على كره منه . واعتقد انه لم يشعر بأي ميل نحو جريتا . ومع ذلك فانها حين كانت تسير في قاعة الفندق او في قاعة الطعام ، كان الرجال يديرون أعناقهم ويتابعونها بنظراتهم .

كانت من أهل الشمال ، من هؤلاء الشقراوات ذوات الشعر الذهبي ، تجمعه في حلقة كبيرة فوق كتفيها كعادة أهل شلسي ، كانت تبدو كما هي تماماً . سويدية او ألمانية والحق انها كانت ذات عينين واسعتين زرقاوين ، وجسد رائع يفتن الرجال بحسنه وجماله .

ودنوت منهما وانضممت اليهما وحييتهما معا ، وأنا ارجو ان أكون طبيعيا في تصرفي ، بعيداً عن الجفوة ، ولكني لم أستطع منع نفسي من

الاحساس بشيء من الضيق لأني لا أحسن التصنع او المداهنة ، وقالت ايللي على الفور :

— أخيراً يا مايك .. أقدم لك جريتا .

قلت وأنا احاول المزاح نوعا ما إني كنت قد أدركت ذلك ، ولكن محاولتي هذه لم تفلح فقلت :

— تسرني رؤيتك أخيراً يا جريتا .

فقالت ايللي :

— لعلك تعرف انه لولاها لما تم زواجنا .

— كنا سندبر أمورنا بطريقة اخرى على كل حال .

— ما كنا لنستطيع ذلك لو ان الأسرة هبطت علينا هبوط الصاعقة كانوا سيفلحون في التفريق بيننا بأي طريق .. حدثيني يا جريتا عما فعلوه معك ، فانك لم تقولي لي شيئا عن ذلك

فردت جريتا :

— إنني أعلم ان مثل هذه الأشياء ليست بالتي تكتب لعروس تقضي شهر العسل .

— ولكن هل حقدوا عليك حقا ؟

— طبعا ماذا كنت تتصورين .. ولكني كنت متأهبة لذلك .

— ماذا قالوا لك ؟. وماذا فعلوا بك ؟

فردت في مرح :

— فعلوا كل ما استطاعوا فعله بادئين بطردي طبعا .

— نعم .. أظن ان ذلك كان أمراً لا بد منه .. ولكن .. ولكن ماذا فعلت انت ؟. مهما يكن فما كان في مقدورهم ان يرفضوا إعطاءك شهادة بمدة خدمتك .

— نعم رفضوا وعلى كل حال، وطبقا لوجهة نظرهم فقد خنت الثقة والأمانة

اللتين يتطلبهما عملي ، وفعلت ذلك بصورة معيبة .
وتابعت تقول :
- ومهما يكن فقد سرني اني فعلت ما فعلت .
- ولكن ماذا تفعلين الآن ؟
- أوه .. إني وجدت عملا سوف التحق به قريبا .
- في نيويورك .
- كلا بل هنا ، في لندن .. سكرتيرة .
- ولكن .. هل انت على ما يرام ؟
فردت جريتا :
- وكيف لا اكون يا عزيزتي وقد بعث لي ذلك الشيك الكبير تعويضا عما يمكن ان يقع لي من أمور بغيضة .

كانت لهجتها الانجليزية سليمة تكاد لا تلحظ ، وإن كانت تستعمل بعض الاصطلاحات القديمة التي لم تعد تجري على لسان أحد .
واستطردت :

- إني طفت ببعض بقاع العالم ، وعقدت العزم على الاستقرار في لندن ، وقد اشتريت مجموعة من الحاجيات .
قالت ايللي وهي تبتسم :
- ونحن ايضا اشترينا الكثير منها انا ومايك .

وكان هذا حقا فقد اشترينا أشياء كثيرة جميلة ، من مختلف البلدان التي زرناها وإن من الجميل حقا ان يملك المرء مالاً ، ومالاً وفيراً كي يستطيع ان ينفق منه بغير حساب فاشترينا أقمشة وأنسجة حريرية من ايطاليا للبيت الجديد ، كما اشترينا لوحات فنية من إيطاليا وباريس دفعنا فيها مبالغ يخيل لغيرنا انها مبالغ جسيمة وهكذا فتحت الدنيا بأمرها أمامي وبطريقة لم أكن أتوقعها أبداً .

وقالت جريتا :

– إنكما تبدوان سعيدين معا .

فردت ايللى :

– إنك لم تري بيتنا بعد ، إنه سيكون تحفة رائعة .. سيكون كما تصورناه تماما في احلامنا ، اليس كذلك يا مايك ؟

– ولكني رأيته في اول يوم عدت فيه لانجلترا ، فأخذت سيارة اجرة أقلتني إلى هناك .

قالت ايللى:

– حسنا !

وقلت أنا في نفس الوقت :

– حسنا ؟

فردت جريتا بعد تفكير :

– لا بأس به .

وراحت تحرك رأسها ذات اليمين وذات الشمال وارتسمت إمارات الحزن الشديد على ايللى . ولكن الخدعة لم تدخل على أنا فقد ادركت على الفور ان جريتا إنما تريد مداعبتنا وإذا كان قد خطر لي ان دعابتها هذه من النوع السمج البغيض . فان هذا الخاطر لم يلبث ان تلاشى ، لأن جريتا إنفجرت ضاحكة .. وكانت ضحكتها كبيرة موسيقية حملت الرجال على النظر ناحيتنا وقالت :

– كان يجب ان تريا وجهيكما .. وخاصة انت يا ايللى .. شئت مداعبتكما قليلا .. إنه بيت رائع جميل .. والمهندس الذي صممه عبقري .

فقلت :

– نعم ، هو رجل غير عادي . إنتظري حتى تلتقي به .

قالت جريتا :

– قد التقيت به فقد كان موجوداً يوم ان ذهبت لأرى البيت . نعم انه رجل عجيب ، بل انه مخيف !

قلت مشدوها :

– مخيف ؟ وكيف ذلك ؟

فأردفت قائلة :

– وهو يبدو مريضاً فوق ذلك .

– بل هو مريض فعلا ، مريض جداً .

– هذا شيء مؤسف .. ومم يشكو ؟ أمن داء السل ؟

– كلا .. لا أظنه مريضاً بالسل ، ولكني اعتقد ان هناك شيئاً في دمه .

– أوه .. إني أرى .. ولكن في مقدور الأطباء في أيامنا هذه ، معالجة جميع الأمراض تقريباً ، ذلك إذا لم يقتلوا المريض وهم يحاولون شفاءه .. ولكن دعنا من هذا الآن ، ولنفكر في البيت .. متى يفرغ العمل فيه ؟

– قريباً جداً .. ما كنت لأتصور أبداً ان يتم بناء منزل بمثل هذه السرعة !

قالت جريتا في غير اكتراث :

– أوه .. إنه المال .. فبفضله وبفضل العمل المستمر والأجر الإضافي يتم كل شيء .. إنك لا تقدرين نفسك حق قدرها يا ايللي .. ما أجمل ان يملك الانسان كل ما يريد من مال .

– أما أنا فكنت أقدرها واقدر قوة المال وسطوته ، فقد تعلمت وتعلمت الكثير في الأسابيع القليلة الماضية !.

كان لا بد لي من مدة طويلة قبل أن أعتاد ذلك وأتصرف كما يجب لكن ذلك لم يهمني كثيراً ..

غير اني لم البث أن عرفت كنه الأشياء بحيث أصبحت نداً للرجال الذين من طراز ايبنكوت ، فلم أعد أخشى شيئاً حين أقبلت مسز كورا ، زوجة أبي ايللى ، وأعمامها بعد ذلك .

وقد اقترحت ايللى ان ننتقل إلى غرفة الطعام ، ونظرت اليها في رفق وود .

وفي آخر ذلك اليوم ، وكان الوقت مساء ، وبعد ان استبدلنا ثيابنا لتناول العشاء قالت ايللى في محاولة أخيرة :

– مايك .. هل .. تحب جريتا ، اليس كذلك ؟

فأجبت :

– طبعاً !

– ما كنت لأحتمل الأمر لو انك لا تحبها .

قلت محتجاً :

– ولكني أحبها . ما الذي يحملك على الظن بعكس ذلك ؟

– لست واثقة تماماً ، حسبت ذلك من نظراتك الصارمة التي ترميها بها وأنت تخاطبها .

– حسناً .. أظن ان ذلك لأني . أشعر بالانفعال .

– الانفعال من جريتا .

– نعم ، فهي توحي إلي بشيء من الخوف كما تعلمين .

فردت ايللى في حزن :

– أوه ، يا مايك .. أعرف اننا نقضي كل وقتنـــا ، أنا وهي في تبادل الحديث ، فقد وقعت لنا أشياء كثيرة يطيب لنا ان نستعيدهـا معاً .. وهي أشياء ربما تشعر أنت ببعض الحرج إن سمعتها .. ولكنكما ستصبحان صديقين قريباً . فهي تحبك .. إنها تحبك كثيراً ، وقد اعترفت لي بذلك .

– إسمعي يا ايللي .. ما كان لها ان تقول ذلك على كل حال .

– أوه ! كلا .. إنها ما كانت تفعل لأنها صريحة ، ولا شك انك سمعتها .. أعني انك ولا شك سمعتها ، وهي تتحدث عن بعض الأمور اليـوم .

وإنصافاً للحق ، فإن جريتا لم تتصنع في حـديثها ، أثناء الطعام ، فقد قالت ، وكانت في الواقع تخاطبني انا ، أكثر مما لو كانت تخاطب زوجتي :

– لا ريب انك استغربت ، بعض الشيء ، تلك الطريقة التي ساندت بها ايللي ، على الرغم من اني لم أكن قد عرفتك بعد.. لكنني كدت ان أصاب بمس من الجنون فتلك الطريقة التي اتخذوها في تدبير حياتها ، فقد أعماهم المال ، كما أعمتهم التقاليد ، ولم يتركوا لها أية فرصة كي تستمتع بحياتها ، فتمضي وتنطلق حيث تشاء. وقد أرادت ان تتمرد على حياتها تلك ، ولكنها لم تعرف كيف تفعل ، وهكذا ..

حسناً .. ساعدتها ، فاقترحت عليها ان تبحث لهـا عن بيت في إنجلترا ، وحين بلغت سن الرشد ، أي الواحدة والعشرين ، قلت لهـا انها تستطيع ان تشتري ذلك البيت ، وان تقيم فيه بعيداً عن أهلهـا الأمريكيين .

قالت ايللي:

– إن جريتا لديها دوماً آراء مدهشة ، وهي تفكر في أمور ما كانت تخطر لها على بال .

وتذكرت عندئذ تلك الكلمات التي نطق بها ليبنكوت في حديثه معي إن لها تأثيراً ونفوذاً كبيرين على ايللي .

وتساءلت إن كانت هذه هي الحقيقة ، ومن الغريب حقا اني لم أعتقد ذلك . كان هناك شيء في زوجتي لم تقدره جريتا ، فلم تفهمه حق الفهم على

الرغم من معرفتها الوثيقة بها . وهذا الشيء هو ان ايللى كانت مستعدة دائما لتقبل أية فكرة تتفق مع رغباتها .

صحيح ان جريتا حثتها على التمرد . ولكن ايللى كانت في قرارة نفسها تريد ان تتمرد، ولا تدري كيف تفعل ، وقد ادركت الآن ، بعد ان أصبحت في موقف يمكنني من معرفتها اكثر من غيري .

وعجبت لأمر مستر ليبنكوت ، وقلت ، ونحن نلتهم بعض ثمار الخوخ :

– يبدو ان مستر ليبنكوت قد تقبل أمر زواجنا تقبلا حسنا ، وإن هذا يثير دهشتي .

قالت جريتا :

– إنه ثعلب عجوز !

فردت ايللى :

– انك تقولين هذا دائما يا جريتا ، ولكني أعتقد انه صديق عزيز .. بل اكثر من صديق .

فقالت جريتا :

– لك ان تستمري في رأيك هذا ، إن شئت ، اما أنا فلن اثق فيه ابداً !

– لا تثقي فيه ؟

فهزت جريتا رأسها وردت :

– إني أعلم ، فهو ينطق بالاحترام والوقار . ثم ان منظره يستوجب الثقة ، فهو كل شيء ، وصي وقيم ومحام .

ضحكت ايللى وسألتها :

– هل تعنين إنه يختلس نقودي ؟. لا تكوني حمقاء يا جريتا ، فإن هناك آلافا من الموظفين والمصارف وكذا المراجعين وغيرهم ..

قالت جريتا :

– أعرف انه لا غبار عليه في هذه الناحية ، ومع ذلك فهو من هؤلاء الناس الذين يمكن ان يختلسوا . أعني من هؤلاء الناس الذين يفرضون الثقة ، ثم لا يلبث الجميع ان يقولوا بعد ذلك :

« ما كنا نعتقد هذا عنه .. إنه آخر رجل كان يخطر لنا ، أن يفعل هذا » .

قالت ايللي في شيء من الشك :

– إنها تظن ان عمها فرنك من الطراز الذي يخون الثقة ويختلس ما يؤتمن عليه من أموال ؟

فردت جريتا عليها قائلة :

– اوه ، حسناً ! . إنه يبدو كاللصوص والنصابين ، ومظهره هذا يحول بينه وبين النجاح في اي عمل ، فهو رجل ظريف رقيق الحاشية ، اما قلبه فلن يطاوعه ابداً على ان يكون محتالاً كبيراً .

فسألتها :

– أهو شقيق ابيك ؟

فاني لم اكن قد وجدت الوقت الكافي لكي اسأل ايللي عن اهلها .

فردت ايللي :

– هو زوج عمتي .. وقد هجرته عمتي وتزوجت برجل غيره ، وماتت منذ ست او سبع سنوات ، وبقي العم فرنك دائم الصلة بالأسرة ، بعد ذلك .

وقالت جريتا في رقة مقدمة معونتها :

– إنهم ثلاثة .. من الطفيليين المتعلقين بالأسرة .. كان لايللي عمان ، قتل احدهما في كوريا ومات الثاني في حادث .. اما الثلاثة الذين اعنيهم فهم كورا زوجة ابيها ، والعم فرنك ، وابن الخال روبين ، وهي تدعوه بخالها ،

في حين انه ابن خـالها في الواقع ، ثم أن هناك انـدرو ليبنكوت ستانفورد لويد .

فسألتها في حيرة :

ـ ومن هو ستانفورد هذا ؟

ـ أوه !. هو وصي آخر ، اليس كذلك يا ايللي ؟. انه يستثمر أموالك على كل حال ، وليس هذا بالأمر المسير حقـاً ، لأنك حين تملك مبالغ طائلة ، كما تملك ايللي ، فإن هذه المبالغ تنمو وتنمو وتتضخم طوال الوقت دون ان يكون بك حاجة لكي تهتم بها بنفسك .. هؤلاء هم الحاشية التي تحيط بايللي .

قالت ايللي:

ـ ولا شك عندي في انك ستلتقي بهم قريباً ، فسوف يأتون لرؤيتك .

نظرت إلى ايللي ، وقـد ندت عن تنهيدة ساخرة ، فقالت في رقـة وعذوبة :

ـ لكن لا تعبأ بهم يا مايك فسوف يعودون من حيث يأتون .

الفصل الحادي عشر

أقبلوا جميعاً، ولكنهم لم يبقوا كثيراً .. لم يبق أي منهم في تلك المرة لأنها كانت أول زيارة لهم ، ولأنهم قصدوا رؤيتي . وكان من العسير علي فهمهم ، ولا ريب ان ذلك لأنهم امريكيون . كانوا من نوع ما تعودت عليه كثيراً . كان بعضهم بادي الرقـة والظرف أكثر مما يجب ، ومن هؤلاء العم فرنك . وقد اتفقت مع جريتا في رأيها ، فما كنت لأثق فيه أبداً ، فقـد التقيت بكثيرين من أمثاله بانجلترا .

كان رجلاً ضخماً يميل إلى السمنة ، تحيط بعينيه الغضون والجيوب وتكسبه منظراً خليعاً ، فقد كان يبدو عليه انه زير نساء ، وقد اقترض مني بعض المال أكثر من مرة ، فقد شاء ان يختبرني وأن يتحقق هل أقبـــل إقراضه بسهولة . وكان هذا الأمر في حد ذاته مدعاة لقلقي لأني لم أعرف ما هي الطريقة المثلى لكي أتصرف معه .. هل كان من الأفضل ان أرفض مباشرة ، وأن أدعه يعرف إني بخيل شحيح ؟. أو التظاهر بالكرم وعدم الاكتراث ؟ وهما أمران لا ينطبقان عـــلي أبداً .. لعنة الله على العم فرانك .

أما كورا ، زوجة أبي ايللي ، فقد أثارت جزعي أكثر من أي شخص آخر كانت في نحو الأربعين من عمرها ، ممشوقة القوام ، مصبوغة الشعر ، فياضـة

الشعور ، خاطبت ايللي بلهجة تقطر عذوبة فقالت :

ـ لا تهمني تلك الخطابات التي أرسلتها اليك يا ايللي ، ولكن الحق ان زواجك بهذه الصورة كان صدمة كبيرة أصابتني في الصميم . كل هذه السرية ، إني أعرف طبعاً ان جريتا هي المسؤولة عن كل ذلك .

فردت ايللي :

ـ لا يجب أن تلومي جريتا ، لأني لم أشأ ان أزعجكم جميعاً . وقد خطر لي اني أوفر عليكم صخباً لا داعي له .

ـ حسناً .. لا بأس يا عزيزتي ايللي .. ولكن رجال الأعمال هاجوا وماجوا واصفرت وجوههم وأثارهم الأمر .. وخصوصاً ستانفورد لويد وأندرو ليبنكوت ، أظن انهم خافوا ان يلومهم أحد لعدم اهتمامهم بك كما يجب ما كان أحد منهم يعرف مايك طبعاً ، وما كان بوسعهم ان يدركوا مدى ظرفه وكياسته .

ورمتني بابتسامة حلوة ، ما رأيت في حياتي ابتسامة كلها رياء مثلها ، فأدركت منها انها تمقتني كل المقت .. حتى ابتسامتها كانت لها معناها ، فإن أندرو ليبنكوت كان قد عاد لأمريكا وأزجى اليها النصح ، وطلب منها توخي الحذر في معالجتها لايللي لأن هذه الأخيرة تنوي بيع ممتلكاتها بأمريكا للاقامة بانجلترا ، وإنها تنوي منح كورا معاشاً إضافياً يمكنها من العيش حيث تريد .

وما ذكر أحد شيئاً عن زوج كورا ، فاستنتجت من ذلك انه هجرها وذهب إلى بقعة اخرى من العالم ، وهو ذهب هناك بمفرده ، كما توقعت وقوع طلاق آخر . ومهما يكن فهي لن تجني من طلاقها هذا شيئاً لأن زوجها الأخير كان شاباً يصغرها سناً ، وكل ما يملكه ما كان يتجاوز وسامته ورجولته .

وقد رغبت كورا هذا المعاش الاستثنائي ، فقد كانت مسرفة جداً ،

ولا ريب ان ليبنكوت العجوز قد الح لها في وضوح بأن هذا المعاش سيتوقف صرفه متى شاءت ايللى ، أو إن هي نسيت نفسها فانتقدت زوج ايللى الجديد .

أما ابن الخال ، أو الخال روبين ، فلم يأت .. بل كتب رسالة لايللى ، وكانت رسالة مرحة ، لا تربطه بأي شيء .. وقال انه يرجو لها التوفيق والسعادة في زواجها ، وإن كان يشك في انها ستستطيب الإقامة في لندن :

« أما إذا لم تطب فعودي إلى الولايات المتحدة ، واعلمي يا ايللى إننا سنرحب بك » .

قلت لايللى :

– إنه يبدو ظريفاً .

فأجابت في تفكير :

– نعم .

ولكن بدا من لهجتها انها غير متأكدة من ذلك فسألتها :

– هل انت مولعة بأى منهم يا عزيزتي .. ربما ما كان لي ان أسأل .

– بل يمكنك ان تسأل عن كل شيء طبعاً .

ولكنها لزمت الصمت لحظة او لحظتين ، ثم قالت اخيراً في شيء من العزم والتصميم :

– كلا ، لا اظن اني مولعه بأي منهم ، وهذا غريب . ولكن اظن أن شعوري هذا مرجعه إلى أنهم ليسوا أقاربي حقاً .. أعني أنهم لا يمتون إلي بصلة الرحم . إني أحببت ابي ، وأحببت كل ما أذكره عنه . وأظنه كان رجلاً ضعيفاً ، خيب ظن جدي ، لأنه لم يشعر بأي قابلية للعمل .. ما كان يهتم بغير الذهاب إلى فلوريدا فيصيد السمك . وقد تزوج كورا فيما بعد ، فلم أهتم بها أبداً ، كما انها ما أبدت بي اي اهتمام هي

الأخرى أما أمي الحقيقية ، فلا أذكر عنها شيئاً فأحببت عمي هنري وعمي جو . كانا مرحين يميلان الى اللهو .. بل كانا أكثر مرحاً من أبي ، فقد كان أبي رجلاً هادئاً حزيناً . ولكن العم جو والعم هنري كانا متهورين ذلك التهور الذي يخلقه المال الوفير ، ومهما يكن فهو الذي مات في حادث التصادم ، في حين قتل الآخر في الحرب .

وكان جدي قد أصابه المرض في ذلك الوقت ، وكانت صدمة كبيرة أن يموت أولاده الثلاثة ، فما اهتم بكورا ، وما شعر نحوهـا بأي ميل . وكذلك ما أظهر اي ميل بالأقارب البعيدين ، ولا بالخال روبين لأنه كان لا يثـق به .. ولهذا أوقف ثروتـه .. وقد آل جزء كبـير منها إلى المستشفيات والمتاحف ، وأجرى جدي معاشاً كبيراً على كورا ، وعلى العم فرنك .

– ولكنه أوصى لك بالجزء الأكبر من ثروته ؟

– نعم ، وأظن ان هذا الأمر قد أزعجه كثيراً ، فقد بذل جهده كي يعنوا بي .

– بأن جعل العم اندرو قيما عليك هو وستانفورد لويد ؟

– نعم ، وأظنـه حسب إني لن استطيع ان أعنى بها بنفسي كما يجب . وأغرب ما في الأمر هو انه أوصى بأن يؤول إلي كل شيء في سن الواحدة والعشرين ، لا في الخامسة والعشرين كما يفعل اغلب الناس ، وأعتقد ان هذا يرجع إلى كوني فتاة .

قلت : هذا غريب حقاً . كان الأمر يبـدو معقولاً ، لو انك كنت رجلاً ..

هزت ايللي رأسها وردت :

– أظن ان جدي كان من رأيه أن من طبيعة الشاب التهور ، وان النساء ، يستطعن ان يلعبن بعقله قبل ان يبلغ سن الخامسـة والعشرين ،

وقد قال لي ذات مرة انه إذا كانت الفتاة على استعداد لأن تتصرف بحكمة فإنها تستطيع ان تفعل ذلك إذا ما بلغت الواحدة والعشرين . وإنـــه ليس هناك اي داع كي تنتظر أربع سنوات اخرى ، فانه إن كان لديها استعداد كي تتهور في تصرفاتها لأن في مقدورهـــا ان تتهور وهي في الخامسة والعشرين .

ثم اضافت بخبث :

– إنك لا تميل لأي واحد منهم ؛ اليس كذلك ؟

– أظن ان كورا زوجة ابيك ذات وجهين ولو انني لا أعرفها جيداً آسف يا ايللى .. ما كان يجب قول هذا طبعا .

– ولم لا ؟. إذا كان هـذا هو رأيك ؟. اظن انـك لا تجانب الصواب .

– لا ريب انك أحسست بالوحدة دائما يا عزيزتي .

– نعم ، كنت دائما وحيدة .. عرفت فتيات كثيرات يقاربنني سنا سنا ، فألحقت بمدرسة داخلية ، لا يدخلها إلا بنات العائلات الراقيـة ولكنني ما شعرت ابداً بأني حرة ، استطيع عمل ما أشاء . كنت إذا ما تصادقت مع فتاة عجلوا بالتفريق بيننا بحجة ان صحبتها لا تليق ، وإن اهتممت بأحد ، لم استطع التمرد . لأنه ما كان هناك من يستحق التمرد من اجله .. ثم جاءت جريتـا فتغير كل شيء ، فاهتممت بها لأول مرة في حياتي ، وتعلقت بها .

ورقت قسماتها وهي تنطق بذلك فنظرت إلى النافذة وانا اقول :

– اريد .

– ماذا ؟.

– أوه . إني لا ادري .. فلعلني اريد ان اقـــول انه لا يجب أن تعتمدي على جريتا .. فانه ليس جميلا ان تعتمـدي على احد ما بهذه

الصورة .

قالت ايللي :

– انك لا تحبها يا مايك .

فأسرعت اقول محتجا :

– بل احبها .. احبها حقا .. ولكن لا تنسي انها .. غريبة عني .. دعيني اصارحك ، انا اغار منها قليلا لأنكما ، حسنا .. فلم ادر ذلك من قبل لأنكما شديدتا التعلق بعضكما ببعض .

– لا تكن غيوراً .. إنها الشخص الوحيد الذي كان كريما معي ، والذي عنى بأمري .. إلى ان التقيت بك .

– ولكنك التقيت بي وتزوجت مني .

ثم قلت مرة اخرى ما سبق ان قلته لها قبلها :

– وسنعيش سعيدين معا الى الأبد بعدها .

الفصل الثاني عشر

اني احاول بقدر المستطاع رسم صورة للأشخاص الذين دخلوا حياتنا . او لعلي يجب ان اقول الذين دخلوا حياتي انا لأنهم كانوا يحتلون مكانا قبل ذلك في حياة زوجي . وكانت غلطتنا ان حسبناهم سيخرجون من حياتنا ولكنهم ما خرجوا ، بل ما كان لديهم النية على ذلك ، وإن كنـــا ما عرفنا هذا وقتئذ .

وكان الجانب الانجليزي من حياتنا هو الحدث التالي ، فقد تم بناء بيتنا ، وجاءتنا برقية من سانتونيكس يطلب منا فيها ان نظل بعيداً نحو اسبوع ، ثم اتتنا برقية اخرى بعدها يقول فيها :

« إحضرا غداً » .

وأسرعنا بالذهاب ووصلنا عند غروب الشمس ، وسمع سانتونيكس عربتنا فخرج للاقاتنا امام البيت . وحين رأيت البيت ، ركض قلبي بين ضلوعي من فرط الانفعال .. فهذا البيت هو بيتنا ..

وهكذا تحققت أمنيتي اخيراً ، وشددت الضغط على ذراع زوجي في حين قال سانتونيكس :

– هل يروق لكما ؟

– إنه يفوق كل ما كنت اتصور .

وكان قولاً سخيفا ، في حد ذاته .. ولكنه كان يعرف ماذا اقصد ، فقـال :

– نعم ، إنه أحسن بيت بنيته حق الآن .. وقد كلفكما مبلغاً ضخماً من المال ، ولكنه يساوي كل ما انفق عليه .. فقد تجاوزت كل تقديراتي .. تعال يا مايك .

وتابع يقول :

– تعال يا مايك .. إحمل زوجتك بين ذراعيك من عادة العريس ان يحمل عروسه إلى بيته .

فاصطبغ وجهي ، وحملت زوجتي ، وكانت خفيفة .. فاجتزت بها عتبة البيت كما قال سانتونيكس ، وتعثرت قليلا وأنا أفعل ذلك فقطب سانتونيكس جبينه وقال :

– هأنتما في بيتكما الآن يا مايك .. كن كريماً معها ، فاحرص على ألا يصيبهـا شيء ، فهي لا تستطيع العنـاية بنفسها ، وإن كانت تظن انهـا تستطيع ذلك .

فقالت ايللي :

– ما الذي يمكن ان يقع لي؟

قال سانتونيكس :

– إننا نعيش في دنيا حافـلة بآثام وشرور . وهناك قوم شريرون يحيطون بك يا فتاتي .. إني أعلم ذلك ، وقد رأيت شخصاً أو شخصين منهم .. رأيتهما هنا .. جـــاءا يدفعهما الفضول ، وهما يتشمهان ، كما تفعل الجرذان !

فقالت ايللي ·

– لن يزعجنا أحد منهم ، بعد ذلك ، فقد عادروا كلهم إلى الولايات المتحـدة .

– كان بودي السهر عليــك بنفسي ، ولكن لا أستطيع . إن أيامي معدودة ، وعليك ان تحرصي على نفسك جيداً .

فقلت :

– لا تتشبه بالفجر يا سانتونيكس ، وامض بنا في أرجاء البيت ، وأرنا كل ما فيه .

وهكذا أخذنا نطوف بالبيت . كانت بعض الغرف لا تزال عــارية ، ولكن أكثر الأشياء التي اشتريناها : الصور والستائر وقطع الأثاث قد وضع في أماكنها .

وقالت ايللي فجأة :

– نحن لم نطلق على البيت إسماً بعد .. ولا نستطيع ان نطلق عليــه اسم « قصر الأبراج » ، فقــد كان اسمــاً سخيفاً .. ما هــو ذلك الاسم الآخر ، الذي ذكرته لي يا مايك .. أرض الغجر .. اليس كذلك ؟

فقلت في حدة :

– لا أريد ان أطلق عليه هذا الاسم فإنه لا يروق لي .

وتدخل سانتونيكس فقال :

– هو معروف بهذا الاسم بالمنطقة .

وأخذنا مجلسنا ، بعد ذلك ، في الشرفة ، نتابع بأعيننا منظر الشمس وهي تغيب خلف الأفق ، ونبحث عن أسماء تليق بالمنزل . وكانت لعبــة جميلة بدأناها في نوع من الجدية ثم راحت تتوارد على أذهاننا شتى الأسماء مثــــل : « آخر المطاف .. بهجة القلب .. منظر البحر الجميل .. بيت الصنوبر » .

ثم خيم الظلام فجأة ، وجاء معه البرد ، فدخلنــــا ولم نسدل الستائر ، بل اكتفينا بأن أغلقنا النوافذ ، وكنا قد أتينا معنا ببعض

المأكولات ، نظراً إلى انـه كان من المفروض ، ان يحضر الخدم ، في اليوم التالي .

وقالت ايللي :

– لا ريب أنهم سيكرهون البيت نظراً لوجوده في مكان منعزل ، وقد لا يرضون بالإقامة فيه .

فقال سانتونيكس :

– إن حدث هذا فما عليك سوى مضاعفة أجرهم .

وكنا قد أتينا ببعض الفطائر والجبن والجبري ، فجلسنـا حول المائدة ونحن نضحك ونتبادل الحديث مع الأكل ..

حتى سانتونيكس نفسه بدأ يتدفق حيوية وانفعالاً ، ومضت عيناه ببريق الاهتمام الشديد .

ووقع الأمر فجأة !.

فقد اندفع حجر صغير من خلال زجاج النافذة ، ووقع على المائـدة ، فأصاب قدحاً تناثرت شظايا جرحت إحداها وجنة زوجتي . وجلسنا لحظة مصعوقين ، لا نبدي حراكاً . ثم نهضت واقفـاً وهرعت إلى النافذة وفتحتها وخرجت إلى الشرفة ، ولكني لم أر احداً ، فعدت إلى الغرفة والتقطت ممسحة ، فانحنيت فوق زوجتي ومسحت نقطة من الدم تسيل فوق خدها وقلت :

– إنه جرح بسيط يا عزيزتي .

والتقت عيناي بعيني سانتونيكس في حين قالت :

– ولماذا يفعلون ذلك ؟

فارتسمت على ملامحها علامات الحيرة والدهشة فقلت :

– لا ريب أنهم بعض الصبية الأشقيـاء ، شاهدوا النور فطاب لهم إزعاجنا ، وإنه من حسن حظك حقاً أنهم قنعوا بالقـاء هذا الحجر

الصغير .. كان في مقدورهم اطلاق بندقية هواء مضغوط ، أو ما هو من هذا القبيل .

– ولكن لماذا يفعلون هذا بنا ؟. لماذا ؟.

فأجبت :

– لا أعلم.. شقاوة أطفال!

فنهضت فجأة وقالت :

– إني خائفة .. خائفة .

فقلت :

– سوف نهتم بهذا الشأن ، غداً .. فنحن لا نعرف شيئاً ، عن جيراننا بعد .

قالت ايللي:

– أيمكن أن يكونوا قد فعلوا هذا لأننا أثرياء وهم فقراء ؟

فلم توجه إلي هذا القول ، وإنما وجهته إلى سانتونيكس ، كما لو كان في مقدوره ان يرد على سؤالها هذا خيراً مني .

وقال سانتونيكس في بطء :

– كلا لا أظن أن هذا هو السبب .

وقالت ايللي :

– ولكنهم يكرهوننا .. يكرهونني أنا ومايك .. لماذا ؟. ألأننا سعيدان ؟

وللمرة الثانية هز سانتونيكس رأسه . فقالت ايللي ، كما لو كانت تؤمن على قوله :

– كلا ، هناك سبب آخر !. سبب آخر لا ندري عنه شيئاً .. أرض الغجر .. كل من يقوم هنا مكروه ، ومضطهد ، فلعلهم يفلحون في آخر الأمر ويطردوننا نحن أيضاً .

ناولتها كأساً من النبيذ وأنا اقول متوسلا :

– لا تنطقي بمثل هذا الكلام يا عزيزتي ، إشربي هذا .. إن ما حدث شيء بغيض حقاً ولكنه عمل صبياني ممجوج .

ثم أضاف :

– لن ندعهم يتغلبون علينا ، وسوف أسهر عليك وأحرص على ألا يصيبك مكروه .

وتحولت الى سانتونيكس مرة أخرى وقالت :

– لا ريب انك تعرف خيراً منا ، فإنك كنت هنا تقوم ببناء البيت .. الم يفصح لك أي شخص عن أي شيء ما ؟. هل حاول أحد إيقاف سير العمل ؟

فأجاب سانتونيكس :

– إن المرء يتصور أحياناً أشياء غريبة !

– إذن فقد وقعت أشياء ما ؟

– إن الحوادث تقع دائماً عند بناء البيوت . ومع ذلك فلم يحصل شيء جدي ، فقد سقط رجل من فوق السلم مرة ، وأصابت كتلة خشبية رجلاً آخر ، ودخلت قطعة صغيرة من الخشب في إصبع ثالث فتورم بشكل مخيف .

– الم يقع شيء آخر غير هذا .. أعني شيئاً يمكن ان يكون له معنى خاص ؟

فأجاب سانتونيكس :

– كلا وأقسم لك على هذا .

فتحولت ايللي إلي وقالت :

– هل تذكر تلك المرأة الغجرية يا مايك ؟ تلك المرأة العجوز التي التقينا بها في ذلك اليوم وكيف انها حذرتنا من الإقامة هنا ؟

– ولكنها امرأة مخبولة .. لا تتمتع بكامل قواها العقلية .

فقالت ايللي ·

– اننا بنينا منزلاً في أراضي الفجر ، وفعلنا عكس ما نصحتنا به بالذات .

وضربت الأرض بقدمها وتابعت تقول :

– لن أدعهم يقصوننا عن هذا المكان .. لن أدع أحداً يقصيني عن هذا البيت .

فقلت :

– لن يرغمنا أحد ، على مغادرة هذا المكان .. سنكون سعيدين ها هنا .

وكأني ، بقولي هذا ، كنت أتحدى القدر .

الفصل الثالث عشر

هكذا بدأت حياتنا في أراضي الفجر .. فلم نجد اسماً آخر لكي نطلقه على البيت . وتحدد كل شيء في الليلة الأولى ، التي قضيناها به ، فقد قالت ايللى :

– سندعوه أراضي الفجر ، لا شيء إلا تحدياً لهم .. ألا توافقني على هذا ؟ . إنه بيتنا ، وهذه أراضينا نحن ، وليذهب إنذار الفجرية للجحيم !

فاستردت بشاشتها ومرحها في اليوم التالي ، وسرعان ما انشغلنا بإجراءات الإقامة ، والتعرف بجيراننا . ومضينا أنا وزوجتي إلى الكوخ الذي تقيم فيه المرأة الفجرية . وكنت أتمنى أن نجدها في بيتها فإن المرة الوحيدة التي رأتها ايللى فيها كانت حين قرأت بختها ، ولكن الكوخ كان موصداً . وسألت جارة لها عما إذا كانت قد ماتت ، إلا ان المرأة هزت رأسها وقالت :

– لا ريب إنها مضت إلى مكان ما ، فهي تختفي من وقت لآخر .. إنها إمرأة غجرية حقاً ، ولهذا السبب بالذات لا يمكنها البقاء مدة طويلة في مكان واحد .. فهي تغادر بيتها من وقت لآخر ، ولا أدري أين تذهب ولكنها لا تلبث ان تعود بعد ذلك .

وتابعت تقول وهي تحاول إخفاء فضولها :

– إنكما أتيتما من ذلك البيت الجديد فوق التـــل ؟. أعني الذي تم بناؤه حديثاً ؟

– هذا صحيح .. إنتقلنا اليه الليلة الماضية .

– إنه مكان جميل .. ذهبنا جميعاً لرؤيته أثناء تشييده . وهو يبدو شديد التناقض مع الأشجار الكثيبة التي تحيط به .

وتابعت تقول مخاطبة ايللى في شيء من الحياء :

– سمعنا انك أميركية ؟. فهل هذا صحيح ؟

فأجابتها ايللى :

– نعم إني أميركية .. أو بالحري كنت أميركية ، ولكني متزوجة الآن من رجل إنجليزي ، وبهذا أصبحت إنجليزية .

– وهل تنوين الإقامة والعيش هنا ؟

– هذا هو ما ننويه فعلاً .

فقالت في لهجة الشك :

– حسناً ، أرجو ان تروق لكما الاقامة هنا .

– ولماذا لا تروق لنا ؟

– أوه ! إنه مكان منعزل كما تعرف ، والناس لا يحبون الإقامة عادة في الأماكن المنعزلة بين مجموعة ضخمة من الأشجار .

تمتمت ايللى قائلة :

– أرض الغجر !

– أوه !. إذن فأنت تعرفين الاسم الذي يطلقونه على المكان ؟. ومع ذلك فإن البيت الذي كان قائماً عليها كان يعرف باسم « الأبراج » ، ولا أدري لماذا يطلقون عليه هذا الاسم ، مع انه لم يكن به ولا برج واحد .. في عهدي أنا على الأقل .

وقالت ايللي :

– لم يرق لي اسم « الأبراج » فهو اسم على غير مسمى ، وأظن اننا سندعوه « أراضي الفجر » .

فقلت :

– يجب أن نخطر مصلحة البريد بذلك ، وإلا .. فلن تصلنا أية رسائل .

– نعم .. لن تصلنا أية رسائل حقاً .

– ألا ترين معي يا ايللي ان الأمر يكون رائعاً وجميلاً حقاً لو لم تأتنا رسائل ما ؟.

قالت ايللي:

– ولكن قد يسبب لنا ذلك تعقيدات كثيرة منها ان الفواتير لا تصلنا فلا نستطيع تسديدها .

– ألا يكون هذا شيئاً رائعاً ؟

– كلا ، لا يكون كذلك أبداً .. فسيهرع المحضرون ، الواحد بعد الآخر ، فلن يروق لي ذلك ، ثم إني أتلهف لأنباء جريتا .

– دعي جريتا وشأنها الآن ، وتعالي نستكشف المكان سوية .

وهكذا استكشفنا كنجزتون بيشوب . كانت قرية جميلة ، أهلها قوم ظرفاء . وكان المكان هادئاً يدعو للاطمئنان . ولكن الخادمين اللذين ألحقناهما بخدمتنا لم يرق لهما ذلك ، فاضطررنا أخيراً إلى ان ندبر لهما سيارة من سيارات الأجرة فتقلهما إلى مدينة سياحية او إلى ماركيت شارويل أيام عطلتها الأسبوعية . فلم تطب لهما الاقامة في البيت : ولم يكن مبعث ذلك الخرافات الشائعة ، فقلت لايللي :

– إن أياً منهما لا يجرؤ على القول ، بأن البيت ملعون ، لأنه حديث البناء .

ووافقتني ايللي قائلة :

– كلا ، فليس البيت هو السبب ، وانما هو شيء آخر . انه ذلك الطريق المتعرج القائم بين الأشجار ، وتلك البقعة المظلمة من الغابة التي ظهرت منها مسز لي فجأة فأفزعتني .

– حسناً ، سنقطع هذه الأشجار في العام القادم، ونزرع بدلاً منها أحواض من الورود والأزهار .

وطفقنا نرسم الخطط .

فأقبلت جريتا وقضت معنا عطلة الأسبوع ، وقد أعجبها البيت كثيراً وكانت من اللياقة بحيث قالت ، بعد نهاية عطلة الأسبوع ، انه لا يصح ان تزعج عروسين أكثر من ذلك ، وانه يجب ان تعود الى عملها على كل حال .

وبعد أسبوعين من إقامتنا كنا قد تعرفنا بأهالي كنسنجتون بيشوب . فأقبل الميجور فيليبوت لزيارتنا ، وهو رجل دمث الأخلاق في الستين من عمره ، وجلس يتبادل الحديث معنا ، ثم تشعب الحديث ، فتكلمنا عن البيت وعن القصص التي تدور حول أراضي الفجر فقال :

– أري انك تعرف الاسم الذي يطلقونه عليه في البلد ، كما تعرف الشائعات التي تدور عنه .

فقلت :

– سمعت الكثير عن هذه الخرافات ، وأعترف ان مسز لي العجوز قد أنذرتنا .

قال فيليبوت :

– يا لاستر العجوز المسكينة !. أظنها أزعجتكما ؟

– أهي مخبولة ؟

– ليس بالقدر الذي تريد ان يعتقده الناس عنها أشعر اني مسؤول عنها

شيئاً ما ، فقد دبرت لها ذلك الكوخ ، ومع ذلك فلم تبد أي شكر أو امتنان انها امرأة عجوز ولكنها تتسبب في الازعاج أحياناً .

– هل تقرأ البخت ؟

– في بعض المناسبات .. هل قرأت لكما بختكما ؟

قالت ايللى :

– لا ادري ان كانت قد قرأت لي بختي حقاً .. كان أقرب للانذار منه الى قراءة البخت .

قال الميجور فيليبوت وقد ارتفع حاجباه :

– هذا أمر غريب ، فهي تتنبأ بالأحداث السارة عادة .. شاب أجنبي وسيم ، وحفلة زواج ، ونصف دستة من الأولاد وحظ سعيد ، ومال يأتيك يا سيدتي الجميلة !

ونطق بالكلمات الأخيرة ، وهو يقلد الغجرية العجوز ، ثم استطرد يقول :

– لقد اتخذ الغجر من هذه الناحية موطناً لهم ، وكانوا يعسكرون فيها وأنا صبي صغير وأظن اني اولعت بهم منذ ذلك الوقت وان كان معظمهم من اللصوص . ولكني افتتنت بهم ، فهم قوم على ما يرام ، طالما ابتعدوا عن كل ما له صلة بالجريمة . وكان أغلب زملائي في المدرسة ، وانا صبي ، من الأولاد الغجر ، فأسرتي نفسها مدينة بالكثير لمسز لي فقد أنقذت حياة أخ لي وهو صغير .. فانتشلته من بركة قبل غرقه .

وأتيت بحركة خرقاء ، فأوقعت كأساً من فوق المنضدة فوقع وتناثر قطعاً صغيرة . فانحنيت لأجمع الشظايا ، وعاونني الميجور فيليبوت ، فقالت ايللى :

– أظن ان مسز لي امرأة غير شريرة ، وانها لحماقة مني ، أن خفت منها .

-- خفت منها ؟. هل بلغ الأمر هذا الحد ؟

فأسرعت اقول :

– ليس من المستغرب أن يتملكها الخوف فقد كانت كلمات مسز لي تهديداً أكثر منه إنذراً .

– تهديد ؟

ونظر الميجور فيليبوت الينا وهو غير مصدق .

– حسناً . هكذا بدا الأمر لي . ثم وقع لنا في أول ليلة قدمنا فيها للاقامة هنا حادث غريب .

وحدثته عن الحجر الصغير ، الذي القي علينا من خلال النافذة ، فقال :

– هذا عمل صبياني شرير ، ولا أدري حقاً كيف يقع مثل هذا الأمر لأن الصبية في بلدنا معروفون بالاتزان والهدوء . هذا شيء يدعو إلى الأسف حقاً .

ونظر لايلى مستطرداً :

-- يؤسفني حقاً إنك شعرت بالخوف .. من البشاعة حدوث هذا في الليلة الأولى لقدومكما .

فقالت ا لى :

– قد نسيت هذا الحادث الآن ، فلم يكن الأمر كذلك . وإنما هو يتعلق بحادث آخر وقع فيما بعد .

ذكرت الميجور فيليبوت ما حدث بعد ذلك ، وهو اننا وجدنا أمام البيت في اليوم التالي عصفوراً ميتاً اخترق قلبه خنجر وبجانبه قصاصة من الورق عليها هذه الكلمات :

« إن كنتما تنشدان الحياة فغادرا المكان »

فارتسم الغضب على وجه فيليبوت عندئذ وقال :

– كان يجب ان تبلغ الشرطة بذلك .

– لم نشأ ذلك ، فلو فعلنا ..

قاطعني فيليبوت قائلا :

– يجب استجلاء هذا الأمر والعمل على إيقافه .

وتغيرت سحنته وظهرت عليه امارات المسؤولية وقال :

– كان من الممكن ان نعزو الحادث إلى المزح .. ولكن لو كان الأمر كذلك فإنه يكون عندئذ مزحاً سمجاً ثقيلاً .

وتابع يقول كما لو كان يحدث نفسه :

– يبدو ان هنـاك من يحقد عليكما .. او يحقد على واحـد منكما بالذات .

فقلت :

– كلا ، لا يمكن ان يكون الأمر كذلك ، فنحن غريبان عن هذه الناحيـة !

قال فيليبوت :

– سأتحقق من ذلك .

ونهض واقفاً وهو يردد البصر حوله ثم قال :

– إني أحب بيتكما هذا .. فما ظننت اني سأميل اليه فأنا كما تعلمان من الجيل القديم ، وأحب البيوت القديمة ، لأن البيوت الحديثة لا تروق لي فهي تبدو بحجراتها كعلب الكبريت ، ولكني أحب بيتكما هذا ، فهو على الرغم من انه حديث البناء إلا ان حجراته فسيحة منيرة .. وهو يطل على منظر ساحر بديع فوق ذلك .. من الذي صممه ؟. أهو مهندس إنجليزي أم أجنبي ؟

حدثته عن سانتونيكس فقال :

– أظنني قرأت شيئاً عنه في مجـــلة « البيت والبساتين » ورأيت بعض

صوره ورسوماته .

فقلت له انه مهندس معروف فقال :

– أود لو التقي بـــه ، وإن كنت لا أدري ماذا أقول له ، فأنا لست فناناً .

ثم دعانا لزيارته ، وتناول الغداء معه ومع زوجته ، ذات يوم ، وأردف يقول :

– وسنرى عندئذ هل يروق لكما بيتي .

فسألته :

– أهو بيت قديم ؟

– قد بني في سنة ١٧٢٠ ، وهو الوقت الذي اشتهر بفن البناء الرفيع . والبيت كان مبنيا على طراز الملكة اليزبيث ، ثم هدم في سنة ١٧٠٠ وبني مكانه بيت جديد .

– أنت تقيم هنا منذ وقت طويل إذن ؟

– نعم نحن نعيش هنا منذ عهد الملكة اليزبيث .. نتأرجح بين شقي الرحى .. أحيانا نعيش في رخاء كبير ، وأحيانا يتخلى الحظ عنا فنبيع الأرض حين تسوء بنا الأمور ، ثم نعود فنشتريها حين تتحسن ، ويسرني ان أريكما بيتي .

وتابع يقول وهو ينظر إلى ايلي :

– ان الأمير كيين يحبون البيوت القديمة .

ثم أردف يقول وهو يخاطبني :

– أما أنت فأعتقد انك لن تحبه كثيراً .

– لا يمكن ان أدعي فأقول اني أحب الأشياء القيمة .

وذهبنا في بداية الاسبوع التالي لزيارة آل فيليبوت وكانا يقيمان في بيت مبني على الطراز الجورجي وكان آل فيليبوت قد دعوا بعض الجيران كي

يتم التعارف بيننا وبينهم ، فكان هناك الدكتور شو ، والقس كذلك ، وامرأة متوسطة العمر ، كما كان هناك فتاة طويلة القامة ، مليحة الوجه سمراء تدعى كلوديا هارد كاسل ، وقد انسجمت مع ايللي كل الانسجام .

وكان يوما ممتعا ، وبينما كنا نتنزه في الحديقة لحقت كلوديا هارد كاسل وقالت في اقتضاب :

– إني سمعت عنك . من أخي .

نظرت اليها مشدوها فلم أتصور ان من الممكن ان أعرف أخا لكلوديا هارد كاسل وقلت :

– هل أنت واثقة ؟

بدا ان سؤالي هذا أطربها فقالت :

– هو الذي بنى بيتكما .

– هل تعنين ان سانتونيكس أخوك ؟

– هو أخ غير شقيق .. اني لا أعرفه معرفة وثيقة ، لاننا نلتقي نادراً .

– انه مدهش .

– هذا رأي البعض فيه .

– ألا تعتقدين ذلك ؟

– لا ادري ، لان فيه نقيضين .. جاء عليه وقت كان يهبط الدرك هبوطا شنيعا . فلم يرض احد ان يكون له معه أي شأن ، وفجأة .. تغير كل شيء ، وعاد يصعد السلم من جديد بصورة غريبة فأصاب نجاحا باهراً ، بدا كأنه اصبح موهوبا بغتة .

– هو ذلك .

ثم سألتها عندئذ اذا كانت قد شاهدت بيتنا فردت :

– كلا ، لم اره منذ تم بناؤه .

قلت لها انه يجب ان تأتي كي تراه فردت :

– ولكني احب ان اقول لك انه لن يروق لي، لاني لا احب البيوت الحديثة فطرازي المفضل هو طراز الملكة آن .

وقالت انها ستعمل لانضمام ايللى لنادي الجوالف وانهما سيركبان الجياد معا وان ايللى ستشتري جواداً ، بل ربما تشتري أكثر من جواد ، وهكذا توثقت بينها وبين ايللى اواصر الصداقة .

وقال الميجور فيليبوت كلمة او كلمتين عن كلوديا وهو يريني اصطبلاته فقد قال :

– انها فارسة ممتازة ، ومما يؤسف له انها افسدت حياتها .

– وكيف ذلك ؟

– انها تزوجت برجل يكبرها بأعوام كثيرة ، رجل اميركي اسمه لويد ولكن زواجها فشل فانفصلا سريعا واستردت اسمها وهي فتاة . ولا اظنها ستتزوج ثانية فقد اصبحت تمج الرجال ، وهذا امر يؤسف له .

وقالت ايللى تخاطبني ونحن بطريق العودة :

– يوم جميل .. وقوم ظرفاء .. سنكون سعيدين هنا ، اليس كذلك يا مايك ؟

– نعم سنكون سعيدين .

ومررت بالبيت حتى بلغت الشرفة ، ووقفت لحظة بجوار النافـذة ، كانت ايللى تترنم باحدى الاغاني المحبوبة ، ولا اعرف بأي اسم ادعوها ، كانت تنطق بالـكلمات في رقة ، كما لو كانت تحدث نفسها ، وقـد انحنت برأسها ، فوق القيثـارة ، وراحت اصابعها تجري على اوتارهـا في رفق .

كانت تقول :

خلق الرجل للسعادة والشقاء

وحين يدرك هذا حق الادراك
يعبر الدنيا في امان
كل ليل وكل صبح
يولد البعض للبؤس والشقاء
كل صبح وكل ليل
يولد البعض للسعادة والهناء
يولد البعض للسعادة والهناء
ويولد البعض لليل سرمدي البقاء .

* * *

ورفعت عينيها ورأتني ، فقالت :

– لماذا تنظر الي هكذا يا مايك ؟

– وكيف تريدني أنظر اليك ؟

– إنك تنظر إلي كما كنت تحبني .

– ولكني أحبك طبعاً يا عزيزتي .. وكيف تريدين ان أنظر اليك بغير ذلك ؟

– ولكن فيم كنت تفكر عندئذ ؟

أجبت في بطء وفي صدق :

– كنت أفكر فيك كما رأيتك أول مرة .. واقفة في ظل شجرة من أشجار الشوح ..

نعم ، كنت أذكر أول مرة رأيتك فيها يا ايللي .. إنني أفكر في دهشة وانفعال تلك اللحظة .

ابتسمت لي وراحت تشدو في رقة وعذوبة :

كل صبح وكل ليل
يولد البعض للسعادة والهناء
يولد البعض للبؤس والشقاء
ويولد البعض لليل سرمدي البقاء

* * *

والمرء لا يستوعب اللحظات الهامة الحقيقية في حياة الغير ، إلا بعد فوات الوقت .

وكانت اللحظة التي انصرفنا فيها من بيت فيليبوت في طريقنا إلى بيتنا ونحن في منتهى السعادة ، إحدى هذه اللحظات ، ولكني لم أدرك هذا إلا فيما بعد .

الفصل الرابع عشر

من الغريب في دنيانا هذه أن الامور لا تتم كما يتوقع المرء ويشتهي ، فقد انتقلنا إلى بيتنا وفي نيتنا ان نعيش فيه وحدنا كما فكرت ودبرت ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه .

ذلك ان زوجة ابي ايللي اللعينة أمطرتنا بالرسائل والبرقيات ، تطلب من ايللي فيها ان تكون دائمة الصلة بالسماسرة فقد أعجبها بيتنا أيما إعجاب بحيث فكرت ان يكون لها هي الأخرى بيت بانجلترا قائلة انها تحب ان تقضي فيها شهرين من كل سنة ، ولم تلبث ان أقبلت هي بنفسها عقب آخر برقية ، وكان لا بد من أن نطوف بها أماكن كثيرة في الأنحاء بحثاً عن بيت يروق لها . ووقع اختيارها أخيراً ، على بيت يبعد عنا بنحو خمسة عشر ميلا .

وأثناء هدنة بين هذه المشاكل إكتشفت انا وايللي ذلك الكوخ الذي أطلقنا عليه فيما بعد اسم « الخلوة » . وقلت :

— لن ندع كورا تعرف عن هذا المكان شيئاً طبعاً .

وذات يوم ، بعد ان قضينا وقتاً ممتعاً في « الخلوة » وكانت كورا قد قدمت ثم عادت ، خلونا فيه وحدنا ونحن نرجو ألا يعكر أحد صفونا بعد ذلك . وكانت ايللي تثب أمامي في رشاقة وخفة ، ولكنها لم تلبث ان

تعثرت في جذع شجرة فوقفت والتوى كاحلها .

فأقبل الدكتور شو وقال انه التواء بسيط وإنها بحاجة إلى راحة تامة لمدة أسبوع على الأقـــل كي يزول أثره . فأرسلت ايللي عندئذ في طلب جريتا . ولم استطع الاعتراض فلم يكن هناك أحد حقاً لـكي يعنى بشؤون البيت . أعني إمرأة ، لأن الخادمـين اللذين يقومان على خدمتنا كانـا خاملين لا نفع فيهما .. ومهما يكن من أمر فإن زوجتي أرادت جريتا ، وكان لا بد لجريتا ان تأتي .

وقالت ايللي تخاطبني :

— انك لا تمانع في ان تبقى جريتا معنا بعض الوقت طبعاً .

فلم يسعني إلا القول :

— كلا .. كلا ، لا مانع لدي .

ويبدو ان جريتا قد أزعجتها صحة ايللي ، وقالت لها انه يجب ان تفعل هذا ، وان ترد نفسها عن ذلك .

وخاطبتني قائلة :

— إنها ليست قوية الجسم كما تعلم .

— إنها على ما يرام .. إن صحتها على ما يرام .

— كلا يا مايك .. إنها ضعيفة البنية ، رقيقة الصحة .

وحين أقبل الدكتور شو بعد ذلك وفحص كاحل ايللي وقال لها انها تستطيع السير عليها ثانية ، بشرط ان تربطها .

فقلت في رعونة :

— اليست ضعيفة البنية او رقيقة الصحة يا دكتور شو ؟

نظر الدكتور شو إلي كمن أصيب في كبريائه وقال :

— من الذي يقول انها ضعيفة ؟. انها على أتم ما يرام .. وفي مقدور كل امرىء ان تلتوي كاحله .

– إني لا أقصد كاحلها ، وإنما اتساءل إن كانت ضعيفة القلب أو مصابة بشيء من هذا القبيل .

نظر إلي من فوق نظارته وقال :

– دعك من الأوهام ، أيها الشاب !. من الذي وضع هذه الفكرة في رأسك ؟.. إنك لست من ذلك النوع ، الذي تزعجه أمراض النساء .

– إنما نقلت لك رأي مس اندرسون

– آه ، مس اندرسون .. وما الذي تعرفه عن ذلك .. هل لها دراية طبية تسمح لها بمثل هذا القول .

– أوه ، كلا ..

– إن زوجتك امرأة ثرية جداً ، فإن صدقنا الشائعات المحلية ، والناس عادة يعتبرون الأميركيين أثرياء .

– إنها ثرية .

– حسناً ، يجب ان تذكر ما سأقوله لك ، إن النساء من عادتهن استشارة كثير من الأطباء ، ولا يجد هؤلاء تبريراً لذلك ، مناصاً من تزويدهن بالمساحيق والأقراص والمنبهات والحبوب المنشطة والمهدئة ، وأشياء من الأفضل ألا يتناولنها ، ان القرويات الفقيرات يتمتعن بصحة أفضل لأنه ليس هناك من يهتم بصحتهن بأي حال من الأحوال .

– إنها تتناول بعض الأقراص .

– سأفحصها ان اردت وأرى أي نوع من الأقراص تتناول ، وأستطيع القول لك منذ الآن انني طالما نصحت أناساً كثيرين بالقاء كل هذه الحبوب في سلة المهملات .

وخاطب جريتا قبل ان ينصرف فقال :

– طلب مني مستر زوجرز القيام بفحص عام ، فلم أستطع ان اجد شيئاً

يمكن ان نستند اليه . وأظن ان كثيراً من الرياضة بالهواء الطلق قد يفيدها . عما تتناول من الأدوية ؟

– ان لديها أقراصاً تتناول بعضاً منها حين تحس بالتعب أو الارهاق ، وأخرى كي تنام .

ومضت هي والدكتور شو لإلقاء نظرة على الوصفات الطبية فابتسمت ايللى ابتسامة خفيفة وقالت :

– اني لا أتناول كل هذه الأدوية يا دكتور شو .. لا اتناول منها غير حبوب الحساسية .

القى شو نظرة على الحبوب ، وقرأ الوصفة الخاصة بها ثم قال :

– انه ليس هناك أي ضرر من تناولها .

فانتقل لوصفة اخرى خاصة بالاقراص المنومة

– هل يتعذر عليك النوم ؟

– لم يحدث لي ذلك منذ ان اقمت بالريف ، لا اذكر اني اخذت قرصاً منوماً واحداً منذ انتقالي الى هنا .

– حسنا . . هذه علامة طيبة

وربت بيده على كتفها وقال :

– ليس بك شيء يا عزيزتي . لا اكثر من ارهاق بسيط في بعض الاحيان وهذه الاقراص للتهدئة لا غير . وكثير من الناس يتناولونها في ايامنا هذه ، وهي ليست مضرة على الاطلاق .. استمري في تناولها ان شئت ، ولكن لا تقربي الاقراص المنومة .

وقلت اخاطب ايللى معتذراً :

– لا اعرف لماذا ازعجت نفسي اظن ان جريتا هي السبب

قالت ايللى

– أوه !.

وضحكت ثم استطردت تقول :

– ان جريتا تزعج نفسها بشأني وهي بالذات لا تتناول اي دواء، سنقوم بتنظيف عام يا مايك ، وسنتخلص من كل هذه الادوية تقريباً ، فنلقي بها في سلة المهملات .

ولم تلبث ان اشتدت اواصر الصداقة بين ايللى ومعظم جيراننا ، وجاءت كلوديا هارد كاسل مراراً ، وتنزهتا مراراً على ظهري جواديهما في مناسبات عديدة .

ومضت كلوديا وايللى مراراً الى السوق معـــاً حيث اشترت ايللى جواداً كستنائي اللون اسمه « كونكر » اي القاهر .

وتوسلت الى ايللى توخي الحـذر حين تركب وحدها ، ولكنها ردت علي ضاحكة :

– اني أركب الجياد منذ ان بلغت الثالثة من عمري .

وهكذا اخذت تخرج للنزهة ممتطيـــة جوادها ، مرتين او ثلاثاً في الاسبوع . فاعتادت جريتا ان تسوق العربة وان تمضي بها الى السوق فتشتري ما تحتاج اليه .

وذات صباح قالت جريتا ونحن نتناول طعام الافطار :

– انت وقومك الغجر !. خرجت امرأة عجوز ، ذات سحنة مخيفـة هذا الصباح ، ووقفت في عرض الطريق ، فكدت ان ادوسها . وكانت سليطة اللسان .

– ماذا ؟. كانت ماذا ؟

كانت ايللى تصغي الينا سويا ، ولكنها لم تنطق بكلمة ، وخطر لي انها انزعجت كل الانزعاج .

واستطردت جريتا :

– عليها اللعنة ! انها هددتني .

فسألتها في حدة :

– هددتك ؟!

– حسناً .. قالت لي أن أغادر المكان واستطردت « هذه أرض الفجر فعودوا من حيث أتيتم ، عودي أنت ومن معك ، عودوا من حيث أتيتم ، إذا كنتم تنشدون الأمان » .

ورفعت قبضتها وهزتها في وجهي ثم عادت تقول :

– إذا أنا القيت عليكم لعنتي فلن تعرفوا طعم السعادة والهناء أبداً .. تشترون أرضنا وتطردوننا منها وتبنون فوقها بيوتاً ، إننا لا نريد بيوتاً حيث يجب أن تكون هناك خيام .

وقالت جريتا كلاماً اكثر ، وقالت ايللى تخاطبني فيما بعد وهي عابسة :

– كلا هذا يبدو بعيد الاحتمال ، ألا تظن ذلك يا مايك ؟

– أظن أن جريتا قد بالغت بعض الشيء .

وعادت إيللى تقول :

– يبدو أن قولها بعيد عن الحقيقة على كل حال ، وإنني أتساءل إذا لم تكن جريتا قد اختلقت الجزء الكبير منه .

قلت في تأمل :

– ولماذا تختلق شيئاً ما ؟

ثم سألتها في حدة :

– ألم تعترض طريقك وأنت راكبة الجواد ؟

– المرأة الفجرية ؟ كلا ..

– هل أنت واثقة ؟

– أظن اني لمحتها .. كانت واقفة بين الأشجار ، تحدق من بعيد ، ولكنها لم تقرب مني أبداً .

ولكنها عادت ذات يوم من إحدى نزهاتها ، شاحبة اللون ، وهي تنتفض

فقد خرجت عليها المرأة من بين الأشجار ، ولوت ايللى عنان جوادها ووقفت لكي تتحدث بكلمات غير مفهومة .

وقالت ايللى :

- كنت محنقة هذه المرة فقلت لها : « ماذا تريدين منـــا ؟ ان هذه الأرض ملكاً لك ، انها أرضنا وهذا بيتنا » .

وعندئذ ردت عليها المرأة قائلة :

- « لن تكون لك أبداً ، ولن تكون ملكاً لك ، اني أنذرتك .. اني أرى الموت ، وأرى البيت الكبير الذي بنيتموه ينهار » .

فقلت محنقاً :

- يجب أن نوقف هذه المرأة عند حدها .

لم تضحك إيللى هذه المرة ، وبدا عليها الجزع ، وعلى جريتـــا كذلك ، أما أنا فقد مضيت إلى القرية رأساً ، فذهبت إلى نقطـة البوليس ، وكنت أعرف الضابط المنوب ، ويدعى الضابط كيني ، وهو رجل عريض الجسم ، سريع الإدراك ، أصغى الي ثم قال :

- آسف لهذا الازعاج يا مستر روجرز .. انها إمرأة عجوز جداً أصبحت تسبب لنا ضيقاً كبيراً .. لم تتسبب لنا في أي مشكلة حقيقيـة حتى الآن . سأتحدث اليها وأنصحها بالابتعاد عنكم .

- إذا تكرمت .

وتردد دقيقة ثم قال :

- لا أحب أن أوعز بأي شيء يا مستر روجرز ، ولكن ألا يمكن أن يكون في هذه الناحية من يحقد عليك وعلى زوجتك ؟

- لا أعتقد ذلك ، لماذا ؟

- إن مسز لي العجوز تنفق المـال بكثرة هذه الأيام ، ولا أدري من أين أتاها ذلك .

– ماذا تريد أن تقول ؟

– لعل بعضهم يدفع لها ، أعني شخصاً يريد أن يبعدكما عن هنا ، فقد وقع حادث منذ بضع سنوات .. إنها أخذت نقوداً من شخص في القرية لكي تفزع أحد الأهالي وتجبره على مغـادرة البلد .. واستخدمت في سبيل ذلك التهديد والوعيد ، والتنبؤ بالحظ السيىء ، وأهالي القرية قوم يؤمنون بالخرافات في العادة ..

ولكني لم أقبل هذه الفكرة ، وأشرت لكيني بأننا غريبين عن هذه القرية وانني لا اظن اننا استوجبنا عداء أحد .

* * *

وعدت إلى البيت موزعاً بين الحيرة والجزع .

وما كدت أبلغ الشرفة حتى سمعت صوت قيثارة ايللى ، ورأيت شخصاً طويل القامة ، واقفاً بجوار النافذة ينظر إلى الداخل يستدير ويأتي نحوي ، وخطر لي في بادىء الأمر أن هـذا الشخص قد يكون الغجرية العجوز ، ولكني لم ألبث أن شعرت بارتياح كبير حين عرفت فيه سانتونيكس ، وقلت وأنا أتنهد :

– أوه .. أهو أنت ؟ من أين اتيت ؟ إننا لم نسمع عنك منـذ وقت طويل ..

لم يرد علي مباشرة ، وإنما أمسك بذراعي وابتعد بي عن النافـذة وقال :

– إذن فهي هنا .. إن هذا لا يدهشني ، كنت اعرف انهـا ستأتي إن عاجلا وإن آجلا . لماذا تركتها تأتي ؟ إنها شديدة الخطر ، كان يجب

أن تدرك ذلك ؟

– هل تعنى إيلني :

– كلا .. كلا .. لا اعنى إيلني ، وإنما أعني تلك المرأة الأخرى .. مـا اسمها ؟ جريتا ؟

حدقت فيه ، فاستطرد ·

– هل تعرف من هي جريتا ؟ انها جاءت كي تبقى ، ولن تستطيع ان تتخلص منها ابداً .

فقلت محنقاً :

– لا استطيع ان القى بها خارج البيت فهي صديقة ايلني ، صديقتهـا الحميمة ، فماذا استطيع ان افعل ؟

قال سانتونيكس :

– لا شيء . اظنك لا تستطيع ان تفعل شيئاً .

ونظر الي ، وكانت نظرة غريبة .. وسانتونيكس رجل غريب الأطوار لا تدري ابداً ماذا يعنى بكلماته .

قال هل تعرف الى اين يقودك طريقك يا مايك ؟ الديك اية فكرة عن ذلك ، يبدو لي احياناً انك لا تعرف اي شيء .

– بل اعرف طبعاً ، ان طريقي يقودني حيث اريد .

– حقاً . انى لأعجب من ذلك ، وانى لاتساءل اذا كنت تعرف حقـاً ما تريد ، انى اخاف عليك من جريتا فهى اقوى منك .

– حقاً ؟ بل اظنها مسألة قوة ، فهي من ذلك النوع القوي ، الذي يبلغ غرضه دائما ، وقد قلت لي انك لا تريدها هنا ، ولكنها جـاءت مع ذلك . وكنت واقفا اراقبهما ، هى وايلني وهما جالستان معا . تتبادل معها الحديث وكأنها في بيتها ، فماذا يكون من امرك انت يا مايك ؟ اتراك انت الدخيل ؟ ام لعلك لست دخيلا ؟

– انك معتوه وتنطق بأشياء سخيفة ، ماذا تعني .. دخيل ؟ أنا ؟ إنما أنا زوج ايللى !

– هل أنت زوج إيللى ، أم أن إيللى زوجتك .

– انك معتوه ! وما وجه الاختلاف ؟

تنهد ، وتراخت كتفاه فجأة كما لو أن الحياة قد افلتت منه وقال :

– إني لا أستطيع ان افهمك .. لا استطيع ان احملك على الاصغاء الي ، ولا أجعلك تفهم ، يخيل لي احياناً اني افهمك وانك لا تعرف شيئاً عن أي احد آخر أحياناً .

ثم استطرد :

– اسمع يا مايك . أنا مهندس معماري ممتاز ، وهذا البيت أروع ما بنيت في حياتي كلها ، قد اردته انت كذلك ، وكذا إيللى هي الأخرى كي تعيشا فيه معاً وقد تم لكما ما اردتما ، فاطرد هذه المرأة الأخرى منه يا مايك قبل أن يسبق السيف العذل .

– وكيف تريد مني ان اقنع إيللى بذلك ؟

قال سانتونيكس :

– إن هذه المرأة تفعل بكما ما تريد .

– لقد اخبرتك اني لا أحب جريتا ، وانها تثير أعصابي ، لقد وقع بيننا شجار عنيف أخيراً ، وإن طردها من هنا لن يكون بالأمر السهل .

– كلا .. لن يكون طردها سهلا .

قلت في غضب :

– هناك غجرية عجوز تبرز من خلف الأشجار وتتوعدنا بقبضتهـــا بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وتنذرنا بأننا إذا لم نغادر هذا المكان فسيكون ذلك وبالاً علينا ، في حين أن هذا المكان كان يجب أن يكون عامراً بالخير والجمال .

كانت الكلمات الأخيرة غريبة ، وقد خيل لي أن شخصاً آخر غيري هو الذي نطق بها ..

قال سانتونيكس :

– نعم . كان يجب ان يكون كذلك ، ولكن ما العمل وهناك روح شريرة قد استحوذت عليه .

– لا أظنك تؤمن بها حقاً ؟

– اني أومن بأشياء كثيرة غريبة ، فاني اعرف شيئاً عن الشر ، الم تدرك ، بل الم يخطر لك اني أنا نفسي جزء من الشر ؟ هكذا كنت دائماً ، واني اعرف الشر كل المعرفة ، اعرفه حين يكون قريباً مني ، وإن كنت لا اعرف مكانه بالتحديد . انى اريد ان يتطهر البيت الذي بنيته من الشر ، فهل تفهم هذا ؟

كان صوته ينذر بالتهديد ، وعاد يقول :

– هل تفهم هذا ؟ إن الأمر بالغ الاهمية بالنسبة لي .

ثم تغيرت لهجته فجأة وقال :

– هلم بنا ، دعنا من هذا الحديث ، هلم بنا كي نرى ايللى .

وهكذا دخلنا ، ورحبت ايللى بسانتونيكس بسرور وابتهاج كبيرين .

وقالت ايللى انها ترجو ان يبقى بضعة ايام ، ولكنه هز رأسه وقال انه لا بد له من الرحيل في اليوم التالي .

– هل هناك ما يشغلك ؟ هل تقوم ببناء منزل جديد ؟

اجاب بالنفي وقال انه خرج لتوه من المستشفى واردف :

– إنهم عالجونى هذه المرة ايضاً ، ولكن يحتمل ان تكون آخر مرة .

– عالجوك ؟ وكيف ذلك ؟

– استخرجوا الدم الفاسد من جسدي واستبدلوه بدم طازج .

قالت ايللى وهي تنتفض : اوه !

وقال سانتونيكس :

ـ لا تراعي ، لن يقع لك ابداً .

ـ ولكن لماذا وقع هذا لك انت بالذات ، يا للقسوة .

ـ ليس هناك اية قسوة كما تتصورين ، فانني سمعت ما كنت تنشدين منذ لحظات .

خلق الرجل للسعادة والشقاء .
وحين يدرك ذلك حق الادراك .
يعبر الدنيا في أمان .

وانا الآن ذاهب في امان ، لأنني اعرف لماذا خلقت ، اما بالنسبة لك يا ايللي فيمكن ان نقول :

كل صبح وكل ليل .
يولد البعض للسعادة والهناء .

قالت ايللي :

ـ وددت لو اشعر بالامان .

ـ الا تشعرين بالامان ؟

ـ لا احب ان يهددني احد او ان يصب على رأسي لعنة .

ـ هل تقصدين الغجرية ؟

ـ نعم .

ـ اطرحيها من ذهنك ، اطرحيها عنك الليلة ، ولنكن سعداء ، نخب صحتك يا ايللي ، اطال الله في عمرك ، وليشملني برحمته ويعجل بنهايتي بدون الم ، اتمنى لك حظاً سعيداً يا مايك .

وامسك ، ورفع رأسه نحو جريتا ، فسألته :

ـ نعم ؟ وماذا تتمنى لي انا ؟

فقال وفي صوته رنة من السخرية

ـ اتمنى لك ما تشتهين ، ولعله التوفيق .

وغادر المنزل في صباح اليوم التالي ، وقالت ايللي :

ـ ما اغرب اطوار هذا الرجل ! انني لم افهمه ابداً .

ـ انا نفسي لا افهم ابداً نصف ما يقول .

ـ انه يعرف اشياء !

ـ اتعنين انه يعرف المستقبل ؟

ـ كلا ، لم اعن هذا . انه يعرف الناس ، وقد اخبرتك مرة انه يعرف الناس خيراً مما يعرفون هم انفسهم .

واردفت تقول في تفكير :

ـ ومع ذلك فهو لم يرث لي .

فسألتها :

ـ ولماذا يفعل ؟

ـ أوه .. لأن ..

الفصل الخامس عشر

في عصر اليوم التالي ، بينما كنت أسرع الخطى في بقعة مظلمة من الغابة ، حيث تبدو أشجار الصنوبر أكثر تهديداً منها في أية بقعة أخرى رأيت هيئة إمرأة طويلة القامة تقف عند المنحنى فتحولت عن الطريق في حركة غير إرادية ، ظناً مني انها الغجرية العجوز ، ولكني لم البث ان توقفت فجأة حين عرفتها ، فقد كانت هي أمي ، وكانت تقف هناك بقامتها الطويلة المتجهمة وشعرها الذي وخطه المشيب .

قلت أخاطبها :

- يا إلهي !. إنك اخفتني يا أماه !.. ماذا تفعلين هنا ؟.. هل أتيت لزيارتنا ؟ . فقد طلبت اليك المجيء أكثر من مرة ، ألا تذكرين ؟

ولم يكن هذا صحيحاً ، فقد أرسلت اليها دعوة فاترة مرة واحدة ، وكان هذا هو كل شيء .

وقد كتبت الدعوة بصيغة تجعلني أتأكد من ان أمي لن تقبلها ، فلم اكن أريدها في بيتي .. لم أكن اريدها ابداً .

وقالت :

- إنك على حق ، ولكنى أتيت لزيارتكما أخيراً ، لأرى إذا

كانت أمورك على ما يرام .. إذن فهذا هو القصر الكبير الذي شيدته لنفسك .

نظرت من فوق كتفي قائلة:

– إنه قصر كبير في الواقع.

وخيل لي إنني ألمس في صوتها لمسة الاستهجان ، التي كنت أتوقعها منها فقلت :

– أتعنين انه قصر كبير لا يليق بي ؟

– لم أقل هذا يا بني !

– ولكن هذا هو ما يدور في رأسك ؟

– إنك ما ولدت لمثل هذا القصر يا ولدي ، وليس من الخير أن تتعالى على مركزك الاجتماعي في الحياة .

– لو انني أصغيت اليك لبقيت في موضعي .

– كنت اعرف انك ستقول لي هذا . ولكن لا أجد خيراً في الطموح لأن نهايته مريرة .

– دعينا من هذا الهذر بحق السماء . تعالي .. تعالي معي لكي تري البيت بنفسك ، ولك ان تتعالي عليه او أن تزدريه إذا أردت .. ولكن حذار ان تشمخي بأنفك أمام زوجتي .

– زوجتك ؟. ولكني قابلتها قبل ذلك .

– ماذا تعنين بقولك هذا ؟

– إذن فهي لم تقل لك .

فسألتها :

– ماذا ؟

– إنها جاءت لزيارتي .

فسألتها مذهولاً :

- جاءت لزيارتك ؟

- نعم ، جاءت ذات يوم وطرقت الباب ووقفت به لا تبدي حراكاً ، وقد بدا عليها الذعر قليلاً . إنها فتاة جميلة وحلوة وترتدي ثياباً غالية ، فابتدرتني قائلة :

- هل انت أم مايك ؟

فأجبتها بالإيجاب وسألتها :

- ومن أنت ؟

- أنا زوجته ، وقد حضرت لكي أراك ، فقد تأكدت انه ليس من الصواب ان لا أتعرف بأم مايك .

- أراهن انه لم يشأ ان تزوريني !

وإذ ترددت استطردت اقول :

- لا حاجة بك إلى مصارحتي بذلك فإني أعرف ولدي جيداً ، أو بوجه أصح أعرف ما يريد وما لا يريد .

- هل تظنين . لعله يشعر بالخجل لأنكما فقيران ولاني ثرية ، ولكن أعتقد ان الأمر ليس كذلك .. أبداً . فليس هذا من شيمه أبداً ..

- لا حاجة بك إلى مثل هذا القول يا بنيتي فإني أعرف نقائص ولدي وهذه ليست إحدى نقائصه . إنه لا يخجل مني ، ولكنه يخافني ، فإني أعرف الشيء الكثير عنه .

وبدا ان قولي هذا قد أطربها فردت :

- هذا هو الشعور الذي أتوقعه دائماً من الأمهات . إنهن يعرفن كل شيء عن أولادهن ، وأظن ان الأبناء يشعرون بالضيق دائماً من ذلك .

قلت :

- كان يجب على ايالى ان تقول لي انها جاءت لزيارتك ، ولا أدري لماذا أخفت عني مثل هذا الأمر .

كنت محنقاً . بل محنقاً جداً ، فلم يخطر لي أبداً ان ايلي يمكن ان تحتفظ لنفسها بمثل هذا السر .

– كانت خائفة مما عملته .. ولكن لا حاجة بها إلى ان تخاف منك يا ولدي

– تعالي . وشاهدي بيتنا .

ولا أدري هل أعجبها المنزل ام لا . نظرت إلى الغرف ورفعت حاجبيها ثم ذهبت إلى الشرفة ، وكانت زوجتي وجريتا جالستين هناك ، وكانتا قد عادتا لتوهما من الخارج ، وكانت جريتا ترتدي معطفاً من الصوف الأحمر على كتفيها ، ونظرت أمي اليها متعجبة ، ووقفت لحظة تنظر اليها كما لو كانت قد تسمرت في مكانها .

هبت ايلي واقفة فأسرعت نحونا قائلة :

– أوه !. أهذه انت يا مسز روجرز ؟

ثم استدارت لجريتا تقول :

– هذه أم مايك جاءت لزيارتنا ومشاهدة بيتنا ، اليس هذا جميلاً منها ؟ هذه صديقتي جريتا اندرسون !

ومدت يديها الاثنتين فأخذت يدي أمي ، ونظرت هذه الأخيرة اليها ثم رفعت عينيها ونظرت الى جريتا قائلة كما لو كانت تخاطب نفسها :

– إني أرى .. إني أرى

فسألتها ايلي :

– ماذا ترين ؟

ردت أمي :

– طالما تساءلت كيف يكون بيتكما . نعم ، إنه منزل جميل .. أثاث ثمين ورياش فخمة ، ومقاعد وثيرة ، ولوحات رائعة .

– يجب ان تتناولي قدحاً من الشاي .

– ولكن يبدو لي انكما فرغتما لتوكما من تناول الشاي .
– إن الشاي مشروب يمكن تناوله في كل حين .

ثم نظرت إلى جريتا قائلة :
– لن أدق الجرس ، هلا ذهبت إلى المطبخ ، واعددت لنا قدحاً من الشاي الطازج ؟
فردت جريتا :
– بكل سرور يا عزيزتي .
ومضت خارج الغرفة . وهي تلقى بنظرة حادة من فوق كتفيها إلى أمي ، نظرة مذعورة بعض الشيء .

وقعدت أمي في حين سألتها ايللي قائلة :
– اين حقائبك ؟ أما أتيت لكي تبقى ؟. ارجو ذاك .
– كلا يا بنيتي ، لن أبقى .. سأعود بالقطار الذي ينطلق بعد نصف ساعة ، أردت رؤيتك فحسب .

ثم استطردت تقول مسرعة ، وأظنها ارادت ان تتكلم قبل أن تعود جريتا :
– ارجو الا تزعجي نفسك يا بنيتي .. إني ذكرت له انك أتيت لزيارتي .
ردت ايللي في حزم :
– إنني آسفة يا مايك ، إذ لم أقل لك ذلك ، فقد خطر لي ان من الخير الا أفعل .
وردت امي :
– إن زوجتك جاءت لزيارتي مدفوعة باحساس يشرفها .. إنها فتاة طيبة يا مايك ، وجميلة ..
ثم استطردت تقول بصوت مسموع :

- انا آسفة .

فسألتها ايللي في شيء من الحيرة :

- آسفة ؟ ولماذا ؟

- لما بدر مني

وأردفت تقول في شيء من التوتر :

- حسنا .. إنك أصبت في قولك حين ذكرت ان الأمهات متشككات فيما يتعلق بأولادهن ، ولكني حين رأيتك عرفت ان مايك أحسن الاختيار وهو موفق .

فقلت :

- يا لها من وقاحة !

ولكني نطقت بذلك وانا ابتسم واستطردت :

- إنك تعرفين انني أتمتع بذوق كبير يا اماه .

فقالت أمي :

- تقصد ان تقول انك تتمتع بذوق للبذخ يكلف الكثير .

ونظرت الى الستائر الحريرية الموشاة

فقالت ايللي وهي تبتسم :

- إنني أسوأ منه في هذه الناحية .

فردت امي :

- بل يجب ان تشجعيه على الاقتصاد من وقت لآخر ، فإن هذا خير له .

فاعترضت اقول :

- ولم الاقتصاد ؟. ان ميزة الزواج بامرأة ثرية هي ان الزوج يستطيع الانفاق كما يشاء ، اليس كذلك يا ايللي ؟

فارتسمت امارات السعادة على ايللي مرة اخرى وضحكت قائلة :

واقبلت جريتا في هذه اللحظة ومعها إبريق الشـاي ، وتوتر الموقف بيننا بعض الشيء ، وحاولت ايللي ان تقنع امي بالبقاء ، ولكن محاولتهـا باءت بالفشل فلم يسعها الا ان تسكت . ورافقنا امي ، انا وايللي حتى الطرقة الخارجية ، وقالت امي فجأة :

– ما الاسم الذي اطلقتماه على المنزل ؟

ردت ايللي قائلة :

– ارض الغجر .

قالت امي :

– آه ! . نعم ! . ان هناك بعض الغجر في هذا المكان اليس كذلك ؟

فسألتها :

– من قال لك ذلك ؟

– شاهدت امرأة غجرية وانا في طريقي اليكم ، وقد رمتني بنظرة غريبة ، هل تسببتما لها في حيف ما ؟

فردت ايللي :

– ابدا . ولكنها تعتقد شيئاً من هذا القبيل .. تعتقد اننا اقصيناها عن هذا المكان واننا اغتصبناه منها .

قالت امي :

– اظن انها تنشد بعض المال

فسألتها ايللي :

– اری انك لا تحبين الغجر .

– إنهم طغمة من الأشرار واللصوص ، يبغضون العمل ويمدون أيديهم لما ليس ملكاً لهم .

– أوه ، حسناً .. لنطرحهم من أذهاننا .

وودعتنا أمي قائلة قبل ان تنصرف :

– من هذه الفتاة الشابة التي تقيم معكما ؟

ذكرت لها ايللي كيف تعيش جريتا معها منـذ ثلاث أو اربع سنوات قبل زواجها ، وكيف انه لولا جريتا لكانت حياتها تعيسة .

واستطردت تقول :

– وقد بذلت جريتا كل ما وسعها لمساعـدتنا ، إنها فتاة رائعة . ولا أستطيع .. بل لا أرى كيف أتصرف بدونها .

– هل تقيم معكما ام انها في زيارة لكما ؟

– أوه ، حسناً .

واستطردت تقول متحاشية الرد :

– إنها تقيم معنا الآن لأن كاحلي أصيب بالتواء ، وكان لا بد من أحد لكي يعنى بي ، ولكني الآن على ما يرام .

– من الخير لعروسين جديدين ان يقيما وحدهما .

ووقفنا بجوار الباب نشاهد امي تهبط التل .

وقالت ايللي في تفكير :

– إنها تتمتع بشخصية قوية جداً .

كنت لا أزال محنقاً من ايللي ، بـل كنت شديد الغضب منها لأنهـا ذهبت لزيارة أمي بدون علمي ، ولكنها حين استدارت ونظرت إلي رافعة حاجبيها قليلاً وعلى شفتيها تلك الابتسامة الساذجة التي أعرفها انفثأ غضبي على الفور وقلت :

– يا لك من فتاة مخادعة صغيرة ، لماذا اهتممت بزيارة أمي كل هذا الاهتمام ؟

– لم أهتم كما تقول ولكني رأيت ان من الواجب والكياسة ان أفعل .. انك لم تحدثني كثيراً عنها ، ولكني أعرف انها بذلت الكثير من اجلك وحرمت نفسها كل شيء تقريباً لتنفق على تعليمك وتجعلك رجلا ، وقـد رأيت ان من

الخسة والتكبر ألا أذهب لأراها .

– ما كان في مقدور احد ان يلومك او انك لم تذهبي لزيارتها .. إن اللوم كان سيقع علي انا .

– نعم . لعلني استطيع الآن فهم لماذا لم تشأ ان اذهب لزيارتها .

– هل تعتقدين اني اعاني من نقطة نص بخصوص امي ؟. إن هذا ليس صحيحاً يا ايللي . اؤكد لك ان هذا ليس بصحيح

ردت في تفكير :

– كلا ، وانا اعرف ذلك الآن .. واعرف انك لم تشأ ان التقي بها حتى لا تصدع رأسي فتحدثني عنك ، لأنها من النوع الذي يحب لأبنائهن الثبات والاستقرار .

– هذا صحيح ، لأن شغلها الشاغل هو انها تريد ان تراني استقر وان اجد عملا .

– لا يمكن ان تحنق عليها لهذا السبب يا مايك لأنها لا تهدف إلا لمصلحتك على اني ارى انك لم تخلق للعمل ولا للاستقرار ، وإنما خلقت للتنقل بين مختلف بلدان العالم واستكشاف المناطق المجهولة .

– بل اريد البقاء هنا ، في هذا المنزل ، معك .

– ربما لفترة ما .. سينتهي بك الأمر إلى العودة هنا من حين لآخر .. وكذلك انا .. أظن اننا سنعود الى هذا المكان كل سنة ، فسنكون في هذا المنزل أسعد منا في اي مكان آخر ، ولكنك ستحب السفر والرحيل يا مايك سيحلو لك ان ترى اشياء وان تشتري اشياء .. ربما تريد ان ترى أنماطاً للبساتين في ايطاليا واليابان وغيرها لكي تقيم مثلها في أراضينا .

– إنك تجعلين الحياة تبدو لي اكثر إثارة يا ايللي . ويؤسفني انى غضبت .

– اوه .. انا لا اهتم بغضبك هذا لأنى لا اخافك .

ثم استطردت تقول

ـ ان امك لا تحب جريتا .

ـ إن اشخاصاً كثيرين لا يحبوها .

ـ بما فيهم انت .

ـ إفهميني يا ايللي .. انك تصرين على هذا القول ، مع انه غير صحيح . كنت اشعر بالخجل منها في بادىء الأمر ، ولكننا اصبحنا الآن متفاهمين .

واستطردت اقول :

ـ وأظنها تجعل الناس يتحفظون معها .

ـ إن مستر ليبنكوت لا يحبها هو الآخر ، ويعتقد انها تؤثر على تأثيراً كبيراً .

ـ وهل هذا صحيح ؟

ـ انني لأعجب لماذا تسأل .. نعم ، اظن انه صحيح ، وهذا شأن طبيعي ، فهي ذات شخصية مسيطرة ، ولا بد من شخص استطيع ان اثق به واركن اليه ، شخص يمكنه ان يكافح ويناضل من اجلي .

فقلت ضاحكاً :

ـ ويمكنك في نفس الوقت ان تفعلي ما تريدين .

وعدنا الى المنزل فلم نجد جريتا فيه ، وقال الخادم انها خرجت تتمشى .

والآن ، وقد عرفت امي انني تزوجت فقد ارسلت اليها شيكاً بمبلغ كبير وكنت اشك في انها ستقبله . وكما توقعت اعادت لي الشيك ممزقاً قطعتين ، ومعه كلمة تقول :

« لا اريد هذا المال يا مايك ، انك لن تتغير ابداً ، وأعرف ذلك الآن ، ولتساعدك السماء » .

قلت مخاطباً زوجتي :

ـ أرأيت امي .. انني تزوجت فتاة ثرية ، وأعيش الآن بنقود زوجتي ، غير انها لا تقرنى على ذلك .

ـ اما انا فأحبك كما انت .

ثم غيرت مجرى الحديث وذكرت شيئاً اثار قلقى :

ـ ما رأيك في خادمنا الجديد ؟

فلم اكن قد فكرت بأمره فأجبت .

ـ انه على ما يرام ، لماذا ؟

ـ خطر لى انه ربما يكون من رجال الامن .

ـ من رجال الامن ؟ . ماذا تعنين ؟

ـ أعنى انه مخبر سري .. اعتقد ان العم اندرو دبر امره لكي يلحقه بخدمتنا .

ـ ولاي سبب ؟

ـ لعله يخشى ان يختطفنى احد .. لا تنسى انه كان هناك حرس خاص يقوم على حراستي في الولايات المتحدة .

ضرر آخر من اضرار المال لم اكن قد فكرت فيه !

ـ يا لها من فكرة مزعجة !

ـ إ ـه !. لا ادري ! . هو إجراء تعودت عليه على كل حال ولا ارى فيم يهمك هذا ، لن يلاحظ احد ذاك حقاً .

ـ وهل زوجته ضالعة في هذا الامر ايضاً ؟

ـ اظن ذلك ، على الرغم من انها طاهية بارعـة . واظن ان العم أندرو ، او لعله ستانفورد لويد هو الذي اغرى خادمنـا السابق على مغادرتنا ، ثم الحق هذين الخادمين بدلهما ، فإن من السهل عليه ان يفعل ذاك .

قلت غير مصدق :

ـ من غير ان يطلعك على ذلك !

ـ لا يفكر احد منهما في إطلاعى على شيء خشية ان اعترض .

واستطردت تقول :

ـ ومن يدري .. ربما اكون مخطئة ، فإنني اشعر دائماً بأن هناك هـــذا النوع من الناس حولى .

قلت في دهشة :

ـ يا لك من فتاة ثرية مسكينة !

فلم تهتم ايللى اي اهتمام وردت :

ـ اظن ان هذا اصدق وصف لي .

ـ انني اكتشف كل يوم اموراً غريبة تتعلق بك .

الفصل السادس عشر

والنوم أمره غريب غامض . فقد أويت إلى فراشي في تلك الليلة ، وذهني مشغول بالفجر والأعداء الخفيين ، والمخبر السري الذي يعيش في بيتي واحتمال اختطاف ايالي ، ومئات من الأشياء الأخرى ، فلم ألبث أن غلبني النعاس وشدني إلى مملكته حيث لا أدري .

وحين صحوت كنت قد تخلصت من متاعبي ومخاوفي ، والفيت نفسي في حالة من الانفعال الشديد ، بحيث ظل اليوم السابع عشر من سبتمبر محفوراً في ذهني .

قلت أحدث نفسي في اقتناع :

– يوم رائع . سيكون اليوم رائعاً من غير شك .

وكنت قد دبرت أمري ، بحيث التقي بالميجور فيليبوت في صالة مزادات تقع على بعد خمسة عشر ميلاً ، وكان هناك أشياء كثيرة معروضة للبيع ، فقد لاحظت في الكتالوج شيئاً او شيئين قررت الحصول عليهما

وكان فيليبوت على دراية كبيرة بكل ما يتعلق بالمفروشات والفضيات وما أشبه . ولم يكن ذلك لأنه كان خبيراً أو فناناً ، فقد كان رجلاً رياضياً ، ولكنه كان على علم بكل شيء ، وكل فرد من أفراد أسرته على

غراره في ذلك .

تفحصت الكتالوج أثناء طعام الافطار ، وكانت ايللى قد هبطت وهي ترتدي ثياب الركوب . كانت تمتطي جوادها كل يوم تقريباً ، أحيانـــاً بمفردها وأحياناً مع كلوديا . كانت لا تتناول غير فنجان من القهوة وكوب من عصير البرتقال كل يوم .

أما أنا فقد تكون طعامي في ذلك الصباح من كلاو محمرة وسجق وباكون وكانت أكلة طيبة لذيذة .

وسألت جريتا قائلا :

ــ ماذا تفعلين اليوم يا جريتا ؟

فردت جريتـا انها ستلتقي بكلوديا هارد كاسل في محطة ماركيت شارويل ، وانها ستـــذهب معها ، إلى لندن ، لمشاهدة أوكازيونات البياضات .

ونظرت إلى ايللى قائلا :

ــ حسناً ، إذا كانت جريتا ذاهبة إلى لندن اليوم فلماذا لا تأخذين السيارة ، وتأتين لملاقاتنا في مطعم جورج ببارتنجتون ؟. إن الطعـــام هناك شهي ولذيذ ، كما يقول الميجور فيلبوت ؟. ما رأيك في أن نلتقي في الساعة الواحدة ؟ إنه على مسافة نحو ثلاثة أميال ، بعد ماركيت شارويل .

ردت ايللى :

ــ حسنا ، سآتي .

وعاونتها على ركوب جوادها ، فأخذت طريقها بين الأشجار . وتركت لها السيارة الصغيرة ليتيسر لهـــا الوقوف بها في أي موقف ، وأخذت العربة الكبيرة الكريزلر ، فانطلقت بها إلى بارتنجتون مانور حيث بلغتها قبل بدء المزار . وكان فيليبوت هناك ، وشاهدت انه حجز لي مكانـاً

بجواره وقال :

– في هذا المزاد أشياء جميلة جداً . لوحة او لوحتان جميلتيان .. واحـدة من رسم رومني ، والأخرى من رسم رينولدز ، فهـل تهمك إحداها ؟

هززت رأسي ، فقد كنت لا أهتم في ذلك الحين إلا بالفنانين المعاصرين . فاستطرد فيليبوت بقول :

– لقد قدم بعض التجار ، وهناك اثنان من لندن .. هل ترى هذا الرجل النحيف المزموم الشفتين ؟. إنه كريستنجتون . وهو تاجر مشهور . ألم تأت زوجتك معك ؟

– كلا ، إنها لا تحب حضور المزادات كثيراً ، ومهما يكن من أمر فلم أشأ أن تصحبني إلى هذا المزاد بالذات .

– اوه ! لماذا ؟

– لأنني أنوي ان أقدم لها مفاجأة ، هل شاهدت رقم ٤٢ ؟

القى فيليبوت نظرة على الكتالوج ثم ردد بصره في الغرفة وقال :

– آه !. هذا المكتب الصغير المصنوع من الورق المضغوط ؟. نعم إنه مكتب جميل ، بل انه من أجمل المكاتب التي رأيتها حتى اليوم .. إنني شاهدت مكاتب كثيرة ، ولكني لم أر مثيلاً له أبداً .. إنه تحفة نادرة ، بل أظن انه لا نظير له .

كان المكتب المذكور دقيق الصنع ، محفوراً عليه رسم لقصر وندسور ، وعلى جانبيه باقات من الزهور والنباتات الجميلة .

وقال فيليبوت :

– إنه تحفة حقاً ، ولكني لم اكن اظنك تهتم بمثله ..

فقاطعته قائلاً :

– أوه !. إنني لا أريده لنفسي ، ولكن ابلى مشغوفة بهذا النوع ،

وعيد ميلادها في الأسبوع القادم ، وأنوى ان أقدمه هدية لها ، وان يكون مفاجأة . ولهذا السبب ، لم أشـــأ ان تعرف إنني مهتم بمزاد اليوم ولكني اعرف ان هذا المكتب سيروق لها جداً ، وانه سيكون مفاجأة حلوة .

وجلسنا وبدأ المزاد فارتفعت قيمة المكتب المذكور ، فقد تكالب عليـه التجار وزايدوا عليه بشكل عجيب ، فاشتدت المنافسة بينهم .

واشتريت مقعداً منقوشاً ، بدا لي انـه سيكون في مكانه الحق في بهو البيت ، كما اشتريت بعض الستائر الكبيرة المطرزة ، وكانت كلها في حالة جيدة .

وقال فيليبـوت ، وهو ينهض واقفاً ، حين فرغ المزايد من بيـع الصباح :

– نعم . يبدو انك استمتعت جيـداً ! هل ستحضر بيع بعد الظهر ؟

هززت رأسي وقلت :

– كلا ، فلم يعد هناك ما يثير اهتمامي ، ولم يعد هناك غـــير بعض المفروشات الخاصة بغرف النوم ، وبعض السجاجيد وما أشبه .

– لا . لا أظن ان هذا يثير اهتمامك حقاً .

ونظر إلى ساعته واستطرد يقول :

– من الأفضل ان ننصرف .. هـــل سنلتقي بايللى ، في مطعم جورج ؟

– نعم ، ستكون بانتظارنا .

– و . ومس اندرسون ؟

– أوه .. فقد ذهبت جريتا إلى لندن . لمشاهدة اوكازيونات البياضات مع مس هارد كاسل ، على ما أعتقد .

– أوه ، نعم ذكرت كلوديا شيئاً كذلك أمس. إن أثمان البياضات ارتفعت بطريقة خيالية في أيامنا هذه .

ومضينا إلى مطعم جورج، ورأينا حشداً من السيارات يقف أمامه .. كان بعضها ملكاً بلا ريب لبعض الذين حضروا المزاد .. ولكني لم أر بينها عربة ايللى ، فدخلنا ، ورددت البصر حولي ، ولكني لم البث ان رأيت انها لم تأت بعد . والحق ، ان الساعة كانت قد بلغت الواحدة ، ولما تتجاوزها بعد .

فأخذنا نأكل ، وجيء بالحلوى اخيراً ، فقلت فجأة :

– إني أتساءل إذا لم تكن ايللى قد نسيت كل شيء .

– لعل من الأوفق ان تتصل بها بالتلفون .

ومضيت إلى التليفون ، فاتصلت بالمنزل ، وردت علي مسز كارسون ، الطاهية تقول :

– أوه !. أهذا انت يا مستر روجرز ؟.. إن مسز روجرز لم تعد بعد !.

– ماذا تعنين بأنها لم تعد بعد .. لم تعد من أين ؟

– لم تعد من نزهتها الصباحية .

– ولكنها خرجت بعد تناول الأفطار ، ولا يمكن ان تبقى طوال النهار !.

– إنها لم تذكر لي شيئاً قبل ان تخرج ، وكنت أتوقع ان تعود .

– لماذا لم تكلميني بالتليفون وتخبريني بذلك ؟

– حسناً . لم ادرى كيف اتصرف فلم أعرف اين كنت .

ذكرت لها اني في مطعم جورج ببارتنجتون واعطيتها رقم التليفون وكان عليها ان تتصل بي بمجرد ان تصلها أنباء عنها. ثم عدت إلى فيلبوت فرأى من ملامحي ان هناك شيئاً فقلت :

– لم تعد زوجتي الى المنزل . خرجت تتنزه بجوادها هـذا الصباح ، وهي تخرج عادة كل صباح تقريباً ، ولكنها لا تبقى بالخارج أكثر من نصف ساعة او ساعة .

قال في رقة :

– لا تقلق قبل ان يكون هناك داع . لعل جوادها كبا وأصيب بالعرج ، فاضطرت للعودة سيراً على قدميها ، وتعلم انه ليس في هذه الناحية احد كي تبعث به إلى المنزل .

– لو انها رأت ان تغير خططها فتذهب لزيارة احد ما لأخطرتني هاتفياً هنا او تركت لنا رسالة .

– حسناً ، لا داعي للقلق . اظن ان من الأوفق ان نمضي الآن لنرى ما حدث .

وفيما كنا نمضي إلى موقف السيارات انطلقت سيارة يستقلها الرجل الذي رأيته في قاعة الطعام . وفجأة عرفته . ستانفورد لويد ؛ او لعله كان رجلاً يشبهه . وتساءلت ماذا تراه يفعل هنا ؟ هل يمكن ان يكون قد أقبل لزيارتنا ؟ إذا كان الأمر كذلك فإن من المستغرب ألا يخطرنا بذلك . وكانت تجلس في العربة معه امرأة كانت تبدو أشبه بكلوديا هارد كاسل ولكني كنت أعلم ان هذه الأخيرة في لندن مع جريتا لشراء بعض البياضات . كل هذا زاد من حيرتي .

وفي الطريق نظر فيليبوت مرة او مرتين . وتقابلت عيناي بعينيه في المرة الأخيرة فقال بمرارة :

– حسناً . إطرح كل هذه الأفكار من رأسك . ربما وقعت والتوى كاحلها او ربما شيء من هذا القبيل قد وقع لها .

وأردف يقول :

– إنها فارسة ممتازة ؛ وقد رأيتها ولا أظن ان حادثاً يمكن ان يكون

قد وقع لها .

– إن الحوادث يمكن ان تقع في أي حين .

فانطلقنا مسرعين ؛ وبلغنا الطريق المؤدي للسهل خلف المنزل ؛ وكنا نردد البصر حولنا مستطلعين ونتوقف من حين لآخر للسؤال .

وتوقفنا برجل كان يقتطع الحطب ؛ وحصلنا منه على اول الأنباء ؛ فقد قال :

– رأيت جواداً لا يركبه أحد ؛ ربما منذ ساعتين او أكثر . فأردت ان أمسكه ، ولكنه أسرع بالانطلاق حين دنوت منه ؛ ولم أر أحداً غيره !.

وقال فيليبوت :

– من الأوفق ان نذهب إلى المنزل فقد تكون هناك أنباء .

وذهبنا الى المنزل فلم تكن هناك اية أنباء .

واستدعيت الخادم وأرسلته الى الأرض البور لكي يبحث عن زوجتي . واتصل فيليبوت ببيته هاتفياً وارسل رجلاً من هناك ليبحث عنها هو الآخر . ثم أخذت انا وهو طريقنا معاً عبر الغابة ؛ وهو الطريق الذي طالما سلكته ايللي وبلغنا الأرض البور .

فلم أر شيئاً في البداية ؛ وتقدمنا بمحاذاة حافة الغابة حيث تتجمع بعض الطرق حين رأيناها .. رأينا كومة من الثياب يتلاعب بها الهواء ؛ وكان الجواد قد عاد ووقف يضرب بحوافره بجوارها .

فأخذت اجري ؛ وتبعني فيليبوت بأسرع مما كنت اتوقع من رجل في مثل سنه .

كانت هناك ممددة .. وثيابها تتطاير من حولها ؛ ووجهها الأبيض ينظر الى السماء ؛ وقلت :

– لااستطيع .. لا أستطيع

ثم أدرت وجهي .

وأسرع فيليبوت وانحنى بجوارها ، ولكنه ما لبث ان نهض على الفور وقال :

ـ يجب ان نبحث عن طبيب.. الدكتور شو .. انه اقرب طبيب؛ واني لا اظن اننا سنكون بحاجة اليه .

ـ هل تعني .. انها ماتت ؟

ـ نعم ! لا خير في الادعاء بأي شيء آخر .

ـ أوه ! يا إلهي !

ونظرت بعيداً واستطردت :

ـ اني لا استطيع ان اصدق هذا . ايللي ماتت !

فقال فيليبوت :

ـ اليك هذا .

فأخرج قنينة من جيبه وانتزع سدادتها وبسطها الي ؛ فأخذت جرعة كبيرة منها قائلاً :

ـ شكراً لك

وأقبل الخادم عندئذ فأرسله فيليبوت ليحضر الدكتور شو .

الفصل السابع عشر

لم أكن أدري شيئاً عما يدور في الجلسات التمهيدية للتحقيق ، فلم يسبق لي ان حضرت مثل هذه الجلسـات ، وقد بدا لي الأمر غريباً ، بعيـداً عن الواقع .

وكان المحقق رجلاً قصير القامة ، ثرثاراً ، يضع نظارات فوق عينيـه . وكان لا بد لي من إثبات شخصية ايللى ، والإدلاء بأقوالي ، فذكرت له كيف كانت ايللى حين رأيتها آخر مرة على مائدة الافطار ، وعند انصرافها بعد فراغها منه لكي تقوم بجولتها الصباحية على ظهر جوادها ، والموعد الذي اتخذناه لنلتقي فيا بعد لتناول الغداء ، وذكرت له انها بدت كعادتها تماماً وفي أتم صحة .

وكانت شهادة الدكتور شو هادئة ، غير قاطعة او حاسمة ، فقال انـه لم يجد أية جراح خطيرة ، ولم يلاحظ أي شيء مما يحدث عادة في مثل هذه الظروف نتيجة لوقوعها من فوق الجواد ، فهي لم تصب بأي كسر يمكن ان يستدل منه على انه تسبب في موتها . فلم يكن هناك ما يدل على انها تحركت بعد وقوعها ، وإن الموت كان سريعاً . ولا يمكن ان يقدم تفسيراً لموتها فيما عدا ان قلبها ربما توقف عن الخفقان ، على أثر الصدمة التي أحدثتها السقطة

وبقدر ما أستطيع ان أفهم من المصطلحات الطبية التي سمعتها ، في ذلك اليوم ، فإن ايللى ماتت لأنها لم تستطع ان تتنفس ، او بمعنى أصح ، ماتت نتيجة اختناق . فقد كان جسدها سليماً ومحتويات بطنها عـادية .

وأدلت جريتا بشهادتها هي الأخرى فشددت الضغط عندئذ أكثر مما فعلت مع الدكتور شو فقالت :

– ان ايللى كانت تشكو من مرض القلب منذ ثلاث او أربع سنوات ، وانها لم تسمع شيئاً محدداً ، ولكن أقارب ايللى قالوا في تلك المناسبة ان قلبها ضعيف ويجب أن تعنى بنفسها وألا تبذل أي مجهود ، فلم تسمع منهم شيئـاً محدداً بالذات .

ثم تقدم الشهود الذين كانوا في مسرح الحادث في ذلك اليوم ، وكان الرجل العجوز الذي كان يقتطع الحطب اول من تقدم منهم فقال :

انه رأى السيدة تمر به على مسافة نحو خمسين متراً وانه كان يعرف من هي على الرغم من انه لم يتبادل معها أي حديث وانه ما عرف عنها إلا انها السيدة المقيمة بالمنزل الجديد .

– هل كنت تعرفها بالنظر ؟

– كلا ما عرفتها جيداً ، ولكني كنت أعرف الجواد يا سيدي ، فإن إحدى قوائمه بيضاء ، وكنت أعرفه منـــذ كان ملكاً لمستر كاري المقيم بشتلجروم فلم أسمع عنه أبداً انه هاج مرة او جمح ، فهو جواد هادىء ويمكن أن تركبه كل سيدة بدون أي خوف .

– هل كان هائجاً حين رأيته ؟ هل كان جامحاً ؟

– كلا ، كان هادئاً جداً ، ثم ان الطقس كان جميلاً .

وقال انه لم يكن هناك أناس كثيرون في ذلك اليوم ، وانه لم يلاحظ أحداً لأن الطريق الذي يؤدي إلى الأرض البور غير مطروق إلا حين يخطر

للبعض إختصار الطريق إلى المزارع المجاورة ، لأن هناك طريقاً آخر على بعد نحو ميل يسلكه الجميع عادة .

وقد رأى في ذلك الصباح شخصاً او شخصين .. رجلا يركب دراجة ، وآخر يمشي على قدميه ، وكانا بعيدين عنه بما فيه الكفاية بحيث لم يميز ملامحهما ، فلم يكن هناك ما يحمله على الاهتمام بأمرهما على كل حـال . وكان قد رأى قبل ذلك بكثير ، أي قبل ان يرى السيدة وهي راكبة جوادها بمدة ، كان قد رأى الغجرية العجوز ، مسز لي . أو هكذا خيل اليه ، فقد كانت آتيـة نحوه ، ولكنها لم تلبث ان تحولت ومضت إلى الغابة ، لأنها غالباً ما تستخدم الأرض البور ، في روحاتها وغدواتها عبر الغابة .

وهنا سأل المحقق :

- لماذا لم تأت مسز لي ؟

فقيل له انهم أرسلوا لاستدعائها للادلاء بشهادتها ، ولكن اتضح لهم انها قد غادرت القرية منذ أيام ولا يعرف أحـد أين ذهبت بالتدقيق . وإنها لم تترك عنوانها ، وانه ليس من عادتها ان تفعل ، وإنها غالبـاً ما تغادر بيتها إلى مكان آخر ، وتبقى غائبة مدة ثم تعود فجأة من غير إخطار ، وإنه ليس في غيابها أي شيء غير عادي ، والواقع ان شخصاً أو شخصين قالا انها غادرت القرية في اليوم السابق لليوم الذي وقع فيه الحادث .

وقال المحقق يسأل الحطاب العجوز ثانية :

ـ ومع ذلك فأنت تظن ان المرأة التي رأيتها هي مسز لي ؟

ـ لا أستطيع ان أجزم بذلك يا سيدي . لست واثقاً .. فقد كانت إمرأة طويلة القامة ، تسير وحدها وترتدي معطفاً قرمزي اللون كالمعطف الذي ترتديه مسز لي أحياناً ، ولكني لم أنظر اليها بصفة خاصة . كنت

منهمكاً في عملي . قد تكون هي ، وقد تكون إمرأة غيرها . لا استطيع أن أجزم .

وعاد فكرر ما ذكره لنا في ذلك اليوم فقال : إنه رأى السيدة وكانت راكبة جوادها ، وأنه كثيراً ما رآها قبل ذلك ، فلم يعرها اي اهتمام خاص في ذلك اليوم . ولكنه رأى الجواد بعد ذلك يعود وحده ، وكان يبدو كما لو أن شيئاً قد أفزعه وقال :

لا ريب أن الأمر كذلك على الأقل .. فلم يستطع تحديد الوقت بالضبط .. لعل الساعة كانت الحادية عشرة إذ ذاك . ولعلها كانت قبل ذلك . وقد رأى الجواد ، بعد ذلك بمدة كبيرة ، وهو يعود إلى الأرض البور .

واستدعاني المحقق بعد ذلك ؛ وسألني بضعة أسئلة أخرى ، عن مسز لي : مسز استر لي المقيمة بفاين كوتيدج :

– هل تعرف أنت وزوجتك مسز لي ؟

أجبته :

– نعم معرفة جيدة .

– هل تحدثت اليها ؟

– نعم مرات كثيرة .

ثم أردفت اقول :

– أو بالحري هي التي تحدثت الينا .

– هل حدث ان هددتك في أي حين او هددت زوجتك ؟

ترددت لحظة او لحظتين ثم اجبت في بطء :

– نوعاً ما .. لكن ما خطر لي أبداً .

– ماذا ؟

– ما خطر لي انها تعني ما كانت تقول حقاً .

– هل كان يبدو عليها انها تحقد على زوجتك ؟

– قالت لي زوجتي ذلك ذات مرة .. قالت انها تظن ان مسز لي تحقد عليها وهي لا تعرف لماذا .

– هل حدث أن طردتها أنت او زوجتك من أراضيكما في أي مرة او هل هددتها وأغلظت في معاملتها بأي حال من الأحوال ؟

– إنما أتى كل عدوان منها هي .

– هل خامرك شعور بأنها مخبولة ؟

فكرت برهة ثم أجبت :

– نعم ، خامرني إحساس بذلك وأظن انها كانت تعتقد ان الأرض التي بنينا عليها بيتنا كانت ملكاً لها أو لعشيرتها كانت لديها فكرة مسيطرة بخصوص ذلك .

واستطردت أقول في بطء :

– وكانت هذه الفكرة تزداد رسوخاً من حين لآخر ؛ حتى أصبحت تلازمها .

– آه . الم تحاول ان تعتدي على زوجتك إعتداء فعلياً في أي وقت من الأوقات ؟

أجبت في بطء :

– كلا ، لا أظن ان من الكياسة قول ذلك .. حسناً . لم يزد الأمر عن إنذار شفوي بحت .. سيلازمكما النحس إن بقيتما هنـا .. ستحل عليكما اللعنة إن لم تغادرا المكان ..

– هل ذكرت كلمة الموت ؟

– نعم . أظن ذلك ؛ لكن لم نأخذها مأخذ الجد .

واستدركت أقول :

– لم آخذها أنا مأخذ الجد على الأقل .

- وزوجتك ؟. هل أخذتها مأخذ الجد .

ـ أخشى انها قد فعلت ذلك ؛ فإن المرأة العجوز كانت تثير الخوف والفزع حقاً . ولا أعتقد انها مسؤولة شخصياً عما كانت تنطق به ؛ أو تفعل .

وانتهت الاجراءات بأن أجل المحقق التحقيق أسبوعين . كانت كل الدلائل تشير إلى ان الموت كان نتيجة حادث؛ ولكن لم يكن هناك أي دليل عما تسبب في وقوع هذا الحادث . وأجل التحقيق للاستماع إلى شهادة مسز اسلر لي .

الفصل الثامن عشر

في اليوم التالي للتحقيق ذهبت لمقابلة المجوز فيليبوت وسألته رأيه بصراحة لأن الحطاب العجوز قال انه رأى إمرأة خيل له انها مسز لي ، وانها كانت ذاهبة إلى الغابة في ذلك الصباح وقلت له :

– إنك تعرف هذه المرأة العجوز ، فهل تعتقد انها جديرة بأن تتسبب في وقوع حادث عامدة ؟

– لا أستطيع ان أعتقد هذا حقاً يا مايك لأنك لكي تقدم على مثل هـذا العمل لا بد لك من سبب قوي كالانتقام من ضرر خاص لحق بك او شيء من هذا القبيل ، في حين ان ايللي لم تفعل لها شيئاً .

– أعرف ان هذا عجيب .. لماذا كانت تظهر بهذه الطريقة الغريبـــة باستمرار وتهدد ايللي وتطالبها بمغادرة البلد ؟. كان يبدو كما لو كانت تحقد عليها . ولكن كيف يمكنها ان تحقد على ايللي وهي لم تكن بالنسبة لها أكثر من أميركية غريبة عنها تماماً . لم يكن بينهما شيء في الماضي ولم تكن بينهما أية صلة

قال فيليبوت :

– إني أعلم . لا أستطيع إلا ان أشعر بأن هناك شيئاً لا نفهمه يا مايك . لا أدري منذ متى كانت زوجتك تعيش في انجلترا قبل زواجها . هل أقامت

في هذه الناحية فترة ما ؟

– كلا وأنا واثق من هذا ، إن الأمر عسير جداً . إني لا أعرف حقاً أي شيء عن ايللى .. أعني اني لا أعرف شيئاً عن معارفها وأصدقائها ، ولا أعرف أين كانت تذهب . إننا إنما التقينا ..

وهززت رأسي ونظرت اليه قائلاً .

– أنت لا تدري كيف التقينا .. كلا .. لا يمكن أن تحدس ذلك أبداً .

وفجأة ، وعلى الرغم مني بدأت أضحك . ورحت أضحك بدون توقف وفي شيء من الهستريا . واستطعت ان أرى وجهه وهو ينظر إلي في صبر وأناة حتى استعدت أنفاسي وملكت زمامي ، كان رجلاً يعرف كيف يواجه كل شيء وكيف يوحي بالثقة ، وقلت :

– إننا التقينا هنا .. هنا ، في أراضي الغجر .. شاهدت اللافتة الخاصة ببيع المكان ، وصعدت الطريق إلى التل لكي أرى الأراضي كلها ، وهكذا رأيتها لأول مرة ، كانت تقف في ظل إحدى الأشجار ، وقد أفزعتها ، أو لعلها هي التي أفزعتني . مهما يكن من أمر فهكذا بدأ الأمر معنا ، وانتهى بنا إلى الإقامة هنا ، في هذه الأرض الملعونة المشؤومة .

– وهل أحست طول هذا الوقت بأنها مشؤومة ؟

– كلا ، نعم ، كلا .. الواقع انني لا أدري .. إنني لم أشأ ان أسلم بهذا الأمر ابداً ، ولكني اظن انها كانت تعلم .. أظنها كانت خائفة ، طول الوقت .

ثم قلت في بطء :

– واظن ان شخصاً ما قصد ان يخيفها عمداً

فقال في شيء من الحيرة :

– ماذا تعني بهذا القول ؟. من الذي قصد إخافتها ؟

– يحتمل ان يكون الشخص الذي أعنيه هو الغجرية العجوز ، لكني لست واثقاً من ذلك ، فقد اعتادت ان تنتظر ايللي ، وان تقول لها ان هذا المكان سيكون نحساً عليها ، وانه لا بد لها من مغادرته .

قال في غضب :

– هكذا ! . ليتني علمت بهذا الأمر .. لو انني علمت به لذهبت إلى استر العجوز ولقلت لها بأنها لا تستطيع ان تفعل شيئاً كهذا .

– لكن لماذا أقدمت على ما فعلت ؟ ما الذي دفعها إلى هذا ؟

قال فيلپوت :

– مثلها في ذلك مثل جميع الناس ، فقد أرادت أن تضفي على نفسها أهمية وهي مولعة إما بانذار الناس وإما بقراءة أبختهم وبالتنبؤ بالطوالع السعيدة ، فهي تحب الادعاء بأنها تعرف المستقبل .

قلت في بطء :

– لنفرض ، ان بعضهم عرض عليها مالاً . فقد قيل لي انها تحب المال .

– نعم إنها تحبه كثيراً .. ولو ان أحداً عرض عليها كما تقول . ولكن من الذي أوعز اليك بهذه الفكرة ؟

– الضابط كين .. والحق انها ما كانت تخطر لي أبداً .

فقال وهو يهز رأسه ببطء

– هكذا !

واستطرد :

– إني لا أعتقد ذلك .. لا أعتقد انها تعمدت إخافة زوجتك الى حد تسببها في وقوع حادث لها .

– لم يكن في حسبانها وقوع هذا الحادث القاتل ، ولا ريب أنها أقدمت على شيء أخاف الجواد بأن أطلقت قذيفة مفرقعة او هزت ورقة كبيرة

بيضاء أمامه او شيئاً من هذا القبيل .. طالما أحسست بأنها تحقد على ايللي من غير سبب .

– يبدو لي هذا بعيد الاحتمال .

فكرت لحظة او لحظتين ثم قلت :

– إن كل ما أقوله سيبدو غريباً .. لنقل ، كما قال كين ، ان شخصاً دفع مبلغاً من المال لكي تفعل ما فعلت ، فماذا كان يريد ذلك الشخص ؟.. لنقل انه كان يريد إبعادنا نحن معاً من هنا ، وانه ركز على ايللي ، وليس علي انا لاني لا أخاف كما تخاف هي ، وانه عمل على اخافتها كي أخاف عن طريقها فنغادر المكان . اذا كان الأمر كذلك فلا بد ان هناك سبباً دفعه الى ذلك كرغبة مثلاً في ان تطرح الأرض للبيع ثانية .. شخص اعتقد انه يريد أرضنا لسبب ما .

فقال فيليبوت :

– هذا ظن معقول ، ولكني لا أرى اي سبب يدفع أي احد الى ان يفعل ذلك .

– لعل هناك منجماً في الأرض لا يعرف أحد عنه شيئاً .

– اني اشك في ذلك .

– أو كنزاً مدفوناً مثلاً .. أوه ! اني اعرف ان قولي هذا يبدو سخيفاً.. ولكن ربما دفنت فيها غنيمة سرقة كبيرة من احد البنوك .

هز فيليبوت رأسه في شيء من الحيرة فقلت :

– ان الاقتراح الوحيد هو ان نعيد خطوة الى الوراء .. لا ريب ان هناك شخصاً خلف مسز لي ، وان هذا الشخص نقدها مبلغاً من المال .. ربما يكون عدواً لدوداً لايللي .

– ولكن .. ألا يمكن ان تشك بأحد بالذات ؟

– كلا ، فهي لم تكن تعرف احداً هنا ، وانا واثق من ذلك ، لم تكن لها

أية صلة بهذا المكان .

ونهضت قائلا :

- أشكرك لاستماعك الي .

- وددت لو اني كنت أكثر عونا لك .

وخرجت من الباب وأنا أتحسس بأصابعي الشيء الذي كنت أضعه في جيبي ، ثم عقدت العزم فجأة ، فاستدرت على عقبي ، وعدت الى الغرفة قائلا :

- هناك شيء أريد ان اريه لك ، كنت ذاهبا الآن كي اريه للضابط كين ، فيرى ماذا يستطيع ان يفعل .

ودسست يدي في جيبي ، فأخرجت منه حجرا صغيرا مستديرا ملفوفا في قصاصة من الورق عليها كلمات مكتوبة بحروف مطبعية .

فقلت :

- القي هذا الحجر من خلال نافذة غرفة الطعام صباح اليوم .. وسمعت الزجاج يتحطم وانا اهبط السلم . وقد سبق ان القي حجر من خلال النافذة قبل ذلك حين قدمنا لأول مرة ، ولا ادري ان كان الذي القاه هو نفس الشخص ام لا .

فأخذت الورقة الملفوفة وناولته اياها . كانت قصاصة قذرة خشنة المظهر عليها كتابة بالحبر الباهت . ولبس فيليبوت نظارته وانحنى فوقها . كانت رسالة قصيرة هذا نصها :

« زوجتك قتلتها امرأة » .

فرفع فيليبوت عينيه وقال :

- هذا عجيب !. هل كانت الرسالة الأولى مكتوبة بحروف المطبعة هي الأخرى .

- لا أستطيع ان اتذكر الآن ، كانت مجرد انذار حتى نغادر المكان .

ولا استطيع ان أذكر نصها بدقة ، ومهما يكن فقد بدا لنا الأمر كما لو كان لهو أطفال ، ولكنه الآن مختلف .

- هل تظن ان الذي القاها يعرف شيئاً ما ؟

- انه مجرد اتهام خبيث من مجهول .. وهذا امر شائع الحدوث .

اعاد الورقة الي وقال :

- اظن انك على حق في ان تذهب بها الى الضابط كين ، فهو يعرف عن هذه الرسائل المجهولة اكثر مما استطيع ان اعرف .

ووجدت الضابط كين في نقطة البوليس ، وارتسمت على ملامحه ابتسامة على الفور وقال :

- ان هناك اموراً غريبة تدور هنا .

- هل تظن ان الرسالة تعني شيئاً ؟

- من العسير الجزم بذلك ، لعل شخصاً خبيثاً يحاول اتهام امرأة لغرض في نفسه .

- ربما يشير الى اتهام مسز لي .

- كلا ، لا اعتقد هذا ، من المحتمل .. اقول ان من المحتمل ان شخصاً رأى او سمع شيئاً .. سمع حركة او صرخة ، ثم رأى الجواد يعدو بعد ان مرت به امرأة ، او لعله رأى او التقى بامرأة بعدها على الفور ، ويظن انها غير الغجرية لأن الجميع يعلم ان هذه الأخيرة ضالعة بهذا العمل ، ولذا يبدو انه يشير الى واحدة غيرها .

- وماذا عن الغجرية ؟.. هل جاءتك اخبار عنها ، او هل عثرتم عليها ؟

هز رأسه ببطء وقال :

- نحن نعرف انها تختلف الى اماكن معينة حين تغادر القرية ، ولا اظن انها ذهبت لأبعد من شرق انجليا .

لمست في قوله هذا شيئاً غريباً فقلت :

- اني لا افهم تماماً .

- لنواجه الأمر بهذه الطريقة .. هي خائفة ، ولديها من الأسباب ما يحدوها لذلك ، فهي قد هددت زوجتك واخافتها ، وتسببت الآن في وقوع حادث ماتت زوجتك على اثره ، سيطاردها البوليس وهي تعلم ذلك ، ولذا فستحاول الذهاب بعيداً ، الى ابعد ما يمكن ..

- ولكنك ستجدها ، فهي معروفة .

- آه ، نعم سنجدها حتماً ، ولكن مثل هذه الأشياء تقتضي وقتاً ما ، هذا اذا كان الأمر قد حدث هكذا حقاً .

- ولكنك تظن ان الأمر لم يحدث هكذا .

- حسناً .. اني اتساءل هل دفع لها احد مبلغاً من المال حتى تفعل ما فعلت ؟

- اذا كان الأمر كذلك فهي ستبادر بمغادرة القرية .

- ولكن شخصاً آخر سيفعل ذلك ايضاً . يجب ان نفكر في هذا يا مستر روجرز .

قلت في بطء :

- هل تعني ؟. الشخص الذي دفع لها ؟

- نعم .

- لنفرض ان هذا الشخص امرأة .

- ولنفرض ان شخصاً آخر خطرت له نفس الفكرة ، فبدأ بأن بعث اليك هذه الرسالة . لو ان الأمر يتعلق بامرأة حقاً فسيتملكها الخوف ، فلعلها لم تكن تقصد ان يقع ما وقع ، وستقول انها لم تكن تريد ذلك ، واذا كانت قد حرصت الغجرية العجوز على افزاع زوجتك ، والعمل ابعادها من هذا المكان ، لأنها لم تكن تهدف الى التسبب في موت مسز

روجرز .

– كلا ، ما قصدت موتها، انما قصدت افزاعنا.. افزاع زوجتي وافزاعي انا عن طريقها فنغادر المكان .

– ان شخصاً ما قد حرض مسز لي ، وهذا الشخص ، سواء كان رجلا او امرأة ، سيعمل على اسكاتها بأسرع ما يمكن ، الا ترى ذلك ؟

– هل تظن انها ماتت ؟

قال كين :

– هذا محتمل طبعاً .

ثم غير مجرى الحديث فجأة فقال :

– انك تعرف تلك الخلوة ، يا مستر روجرز .. المقامة وسط الغابة في اراضيك ؟

– نعم ، ما شأنها ؟ إننا أدخلنا عليها بعض الترميمات والاصلاحات ، انا وزوجتي ، وكنا نختلف اليها من وقت لآخر ، ولكن ليس بصفة مستمرة. ولم نذهب اليها منذ مدة طويلة ، ما شأنها ؟

– حسناً ، كنا نقوم بتحرياتنا كما تعلم ، فوقعنا عليها ، ولم يكن الباب موصداً .

– هذا صحيح ، فنحن لا نوصده أبداً . فكل ما به لا قيمة له تذكر .. بعض قطع الأثاث القديم لا أكثر .

– خطر لنا أن في مقدور مسز لي ان تستخدمه ، ولكننا لم نجد لها أثراً ، وإن كنا قد عثرنا على هذه .. كنت أنوي ان أريها لك على كل حال .

وفتح درجاً وأخرج منه قداحة ذهبية صغيرة ، دقيقة الصنع يدل مظهرها على انها من تلك التي تستعملها النساء ، وعليها الحرف الأول من اسم صاحبتها : ك .

– إنها ليست ملكاً لزوجتك ، اليس كذلك ؟

– كلا ، فإن اسمها لا يبـدأ بحرف الكاف ، ولا تملك أي شيء من هذا النـوع ، وهي ليست ملكاً لمس انـدرسون كذلك ، لأن اسمهـا جريتا .

– وجدناها هناك على أرضية الغرفة .. وهي قداحة ثمينة .

قلت في تفكير :

– ك .. لا أرى أحداً منا يبدأ اسمه بحرف الكاف ، فيما عدا كورا ، زوجة أبي ايللي .. مسز ستوبفيزانت .

– حسناً .. خذها معك واعرضها عليها .

– سأفعل ، ولكن إن كان الأمر كذلك ، وإن كانت القداحة لكورا فنحن لم نرها في الخلوة أخيراً ، فليس في الخلوة أثاث كثير ، ومن الممكن ملاحظة شيء كهذا فوق الأرض .. هل كانت على الأرض ؟

– نعم ، بجوار الأريكة .. في مقدور أي شخص ان يلجأ إلى هذه الخلوة طبعاً ، ما دامت في متنـاول الجميع ، في استطاعة أي زوجين من المشاق الاجتماع فيه في أي وقت ، أعني المشاق المحليين ، وليس من المعقول ان يملك أحد منهم مثل هذه القداحة الثمينة .

– هنـاك كلوديا هارد كاسـل ، ولكني لا أظن انها تملك مثـل هذه القداحة الرقيقة ، ولا أرى ماذا يمكنها أن تفعل ، في تلك الخلوة .

– إنها صديقة لزوجتك ، اليس كذلك ؟

– نعم . بل اعتقد انها أعز صديقة .

قال الضابط كين .

– آه !

نظرت اليه في شيء من الحيرة قائلاً :

– لعلك لا تظن ان كلوديا هارد كاسل كانت عدوة لايللي . إن هذا يكون سخفاً .

– إني أوافقك في الرأي على انه لا يبدو ان هناك سبباً لذلك ، ولكنك لا يمكنك ان تفهم النساء أبداً .

– أظن . .

ثم أمسكت لأن ما كنت أنوي قوله كان سيبدو غريباً .

وقال كين :

– نعم يا مستر روجرز ؟

– أظن ان كلوديا هارد كاسل كانت متزوجة في الأصل من أميركي . . رجل اميركي يدعى لويد . . وهذا اسم أحد الأوصياء الذين يتولون الاشراف على شؤون زوجتي المالية في أميركا . . ستانفورد لويد . ولكن هناك آلافاً في أميركا بهذا الاسم ، وانها تكون مصادفة عجيبة لو انه هو نفس الرجل .

– لا أظن ذلك .

– والغريب في الأمر انه خيل لي إني رأيت ستانفورد لويد في الجوار يوم الحادث . . كان يتناول طعام الغداء في مطعم جورج ببارتنجتون مانور .

– ألم يذهب لزيارتك؟

هززت رأسي قائلاً :

– كان مع سيدة بدت لي كما لو كانت هي كلوديا هارد كاسل ، ولكني كنت مخطئاً طبعاً ، ولعلك تعرف ان اخاها هو الذي بنى البيت .

– وهل أبدت اهتماماً ببيتك ؟

– كلا فلا اظنها تميل إلى فنون اخيها في البناء .

ونهضت قائلاً :

– حسناً . لن أشغل وقتك اكثر من هذا ، حاول ان تجد الغجرية .

– لن نكف عن البحث عنها ، وتأكد من هذا ، فإن المحقق يريد استجوابها .

ودعته وغادرت نقطة البوليس ، ومن عجيب الصدف انك لا تكاد تتكلم عن شخص ما إلا وسرعان ما تلتقي به ، فقد خرجت كلوديا هارد كاسل من مكتب البريد وأنا امر به. وبوقف كل منا وقالت في هذا الارتباك اليسير الذي يتملك الانسان حين يلتقي بشخص قريباً :

– إني جد آسفة يا مايك لما وقع لايللي .. لن اقول لك أكثر من هذا ، لأن من الفظاظة حقاً ان يحاول المرء قول شيء ما في مثل هذه الظروف ، ولكن كان لا بد من إبداء أسفي .

– إني أعلم ، انك كنت كريمة مع ايللي .. إنك جعلتها تشعر كأنها كانت في بيتها ، وإني اشكرك كثيراً .

– هناك شيء أردت ان أسألك إياه ، وأظن ان من الأوفق أن أسألك عنه الآن قبل رحيلك إلى اميركا .. فقد سمعت انك ذاهب اليها قريباً .

– بل بأسرع ما أستطيع ، فهناك مسائل معلقة أريد إنهاءها .

– حسناً .. إن كنت تنوي ان تعرض البيت للبيع لاني ارى ان من الأوفق ان تفعل قبل رحيلك ، وإن كان الأمر كذلك فإني احب ان اكون اول المتقدمين بحق الشفعة .

نظرت اليها وقد دهشت حقاً ، فقد كان هذا آخر شيء أتوقعه منها وقلت :

– هل تعنين انك تودين شراءه ؟. ظننتك لا تهتمين بمثل هذا الطراز من المعمار .

– قال لي رودلف انه احسن بيت صممه وبناه ، وأستطيع القول انه

أعرف بما يقول ، وأتوقع انك ستطلب مبلغاً كبيراً ولكني استطيع دفع ما تريد ، لأني أحب شراءه .

هززت رأسي ببطء قائلا .

– أرى انك تحسبين اني ربما اريد بيع المكان ، وان اغادره بسبب موت ايللي . ولكن الأمر غير ذلك كلية . فقد عشت هنا وكنا سعيدين . وهذا هو المكان الذي سأستطيع تذكرها فيه افضل من اي وقت آخر . كلا ، لن ابيع أراضي الغجر لاي سبب من الاسباب .

وتلاقت عيناها بعيني ، كان الامر أشبه بالصراع بيننا ، ولكنها لم تلبث ان أطرقت ، وجمعت كل شجاعتي فقلت :

– ليس هذا شأني طبعاً ، ولكنك تزوجت مرة ، فهل كان اسم زوجك ستانفورد لويد ؟

نظرت إلي لحظة من غير ان تنطق ثم ردت بايجاز

– نعم .

وتحولت عني .

الفصل التاسع عشر

ارتباك شديد .. هذا هو كل ما استطيع ان اذكره حين اعود بذهني الى الوراء .. حشد من الصحفيين يلقون الاسئلة ويطلبون الاحاديث، وتلال من الرسائل والبرقيات تولت جريتا امرها كلها .

وكانت اولى المفاجآت الحقيقية هي ان اسرة ايللي لم تكن كلها في اميركا في ذلك الوقت كما كنا نعتقد ، وكانت صدمة كبيرة لنا حين تحققنا ان اكثرهم كانوا موجودين فعلاً في انجلترا، ولعله كان من المفهوم ان تكون كورا فان ستويفيزايت موجودة في انجلترا ، فهي امرأة قلقة غير مستقرة ، تسرع الى اوروبا في كل وقت .

وفي اليوم الذي لقيت فيه ايللي حتفها بالذات لم تكن تبعد عنا اكثر من خمسين ميلاً ، كانت تجري وراء نزوتها في شراء بيت في انجلترا ، وكانت قد انتقلت الى لندن وبقيت فيها يومين او ثلاثة ،ثم مضت الى السماسرة واخذت تنتقل معهم فرأت ستة او سبعة بيوت في ذلك اليوم .

واتضح ان ستانفورد لويد إستقل نفس الطائرة لحضور اجتماع ، له صلة بالعمل في لندن، وقد علم كل منهما بموت ايللي من الجرائد المحلية لا من البرقيات التي أرسلناها إلى الولايات المتحدة .

ودار نزاع بغيض حول المكان الذي يجب ان تدفن فيه ، فقد رأيت ان

من الطبيعي ان تدفن هنا ، حيث ماتت ، وحيث عشنا ، أنا وهي . ولكن أسرة ايللي إعترضت على ذلك أشد الاعتراض ، وصمموا على أن ينقل الجثمان إلى أميركا كي تدفن هناك مع أجدادها .. حيث دفن جدها وأبوها وأمها والآخرون ، وأظنه امر طبيعي حقاً ، إذا ما أمعنا التفكير فيه .

فأقبل اندرو ليبنكوت يتحدث معي في هذا الصدد ، ووضح الأمور بطريقة معقولة فقال :

– إنها لم تترك أية معلومات عن المكان الذي تريد ان تدفن فيه .

فقلت في حدة :

– ولماذا تترك تعليمات ما ؟ .. كم كانت تبلغ من العمر ؟. لا أظن احداً كان يتوقع ان يموت وهو في الحادية والعشرين ، ولا أظنه يفكر في المكان الذي يدفن فيه . لو اننا فكرنا في هذا الشأن اقررنا ان ندفن هنا معاً حتى ولو لم نمت في وقت واحد .. ولكن من الذي يفكر في الموت وهو في ريعان الصبا ؟

قال ليبنكوت :

– ملاحظة وجيهة حقاً .

ثم أردف يقول :

– أخشى انه لا بد لك من المجيء إلى أميركا ، فهناك مصالح كثيرة يجب القاء نظرة عليها .

– أية مصالح ؟ وما شأني بالأعمال ؟

– سيتعين عليك ان تهتم بها .. ألا تدرك انك المستفيد الرئيسي بمقتضى الوصيـة ؟

– هل تعني لأنني أقرب قريب لأيللي ؟

– بل بمقتضى الوصية .

– لم أدري انها حررت وصية .

– أوه ، بلى . إن ايللي كانت إمرأة أعمال بارعة ، وكان لا بد لها أن تكون كذلك ، فهي قد عاشت في هذه البيئة ، وقد حررت وصية بمجرد بلوغها سن للرشد ، وعقب زواجها مباشرة تقريباً ، حررتها عند محاميها في لندن وطلبت منه ان يرسل إلي صورة منها .

وتردد ثم قال :

– إذا أتيت إلى الولايات المتحدة ، وهو ما أنصحك به فإنني اظن ان من الأوفق ان تعهد بكل أعمالك إلى محام معروف هناك .

– ولماذا ؟

– لأنه حين تكون هناك ثروة كبيرة وعدد ضخم من العقارات والسندات والمصالح المختلفة فلا من الحاجة لمشورة فنية .

– إني غير كفؤ لمعالجة مثل تلك الأمور . غير كفؤ حقاً .

قال مستر ليبنكوت :

– اني أفهم ذلك .

– ألا أستطيع ان أعهد اليك بها ؟

– تستطيع ذلك طبعاً .

– حسناً ، لماذا لا أفعل إذن ؟

– ومع ذلك فلا بد لأحد من أن يرعى شؤونك منفصلاً ، فإنني الآن ارعى شؤون بعض أفراد الأسرة مجتمعين ، وقد ينتج عن ذلك بعض المشاكل ، فإن أنت عهدت إلي بكل أعمالك فسوف أحرص على ان تبقى مصالحك في أمان بأن أعهد بها لمحام قدير .

– أشكرك ، انك رجل كريم جداً .

ونظر إلي بشيء من الضيق وقال :

– إذا سمحت لي بأن اكون فضولياً ..

فأطربني فيه هذا القول وقلت :

– نعم ؟

– أنصحك بأن تتوخى الحرص في كل ما يقدم اليك من أوراق للتوقيع . إقرأ كل مستند يقدم اليك ، في اهتمام كبير وعناية أكبر ، قبل ان توقع عليه .

– وهل استطيع فهم شيء إذا قرأت هل هذا المستند .

– اذا استغلق عليك اي شيء فألجأ لنصيحة محاميك .

قلت في شيء من الاهتمام فجأة :

– هل تحذرني من شخص معين .

رد مستر ليبنكوت :

– انه سؤال خاص لا استطيع الرد عليه ، وسأذهب لابعد من ذلك فأقول حين يتعلق الامر بمبالغ كبيرة فمن الافضل ألا تثق في احد .

وهكذا ، كان يحذرني من شخص ، ولكنه لم يشأ ذكر اي اسم ، فرأيت نفسي فجأة فتى غراً يسبح في بركة مملوءة بتماسيح شريرة ارتسمت على وجوهها ابتسامات الود الزائف .

قال مستر ليبنكوت :

– ان الدنيا مملوءة بالشرور .

وربما كان ذلك سخفاً مني ولكني سألته فجأة :

– هل يستفيد أحد ما من موت ايللي ؟

نظر الي في حدة وقال :

– انه سؤال غريب جداً . لماذا تسأله ؟

– لا أدري .. انما هو مجرد سؤال خطر لي .

– انت المستفيد .

– طبعاً ، فهو امر طبيعي . وانما عنيت حقاً . هل هناك من يستفيد

غيري أنا ؟

لزم مستر ليبنكوت الصمت لحظة طويلة ثم قال :

ـ اذا كنت تريد ان تسأل . اذا كانت ايللي قد اوصت بشيء ما لاشخاص معينين فأقول لك انها قد فعلت ذلك في حدود ضيقة . انها اوصت بمبالغ من المال لبعض الخدم القدامى ولمربية عجوز ولجمعية او جمعيتين خيريتين ، وقد أوصت بمبلغ من المال لمس اندرسون لكنه ليس بالمبلغ الكبير نظراً الى انها سبق ان كافأتها بمكافأة كبيرة قبل ذلك .

فأومأت برأسي .. كانت ايللي قد اخبرتني بأنها فعلت ذلك .

ـ انك كنت زوجها ، فلم يكن لها اقارب غيرك ، ولكني أعتقد انك لم تكن تقصد هذا بالذات بسؤالك .

ـ لا أدري ماذا كنت اقصد بالتحديد .. ولكن مهما يكن فإنك قد أفلحت يا مستر ليبنكوت في ان تزرع في نفسي بذور الشك .. ولكني لا أدري فيمن أشك .. انني أصبحت متشككاً فحسب . لانني لا افهم شيئاً في شؤون المال .

ـ انه واضح كل الوضوح .. دعني اقول لك اني لا اعلم شيئاً بالذات ، وليس لدي أي شك حقيقي ، ولكن حين يموت احد يسارعون بحصر جميع امواله وممتلكاته وبتقديم بيان عنها ، ولكن قد يقدم ذلك البيان عقب موته مباشرة وقد يقدم بعدها بعدة سنوات .

ـ معنى قولك ان بعضهم قد ينتهز الفرصة لكي يحصل على مستندات تخوله الحصول على شيء ليس من حقه ، او ان احدهم قد يحاول حملي على توقيع تنازل ما .

ـ ان اعمال ايللي متسعة ، وقد يكون موتها الفجائي مناسباً لشخص ما ، ولن أذكر اسماء ، ولكن قد يحاول ذلك الشخص ان يستغل طيبة شاب بسيط مثلك ، ولا اريد الكلام اكثر من ذلك في هذا الموضوع ، فليس من

الانصات ان أفعل .

كانت الجنازة بسيطة ، أقيمت في الكنيسة الصغيرة ، ولو اني استطعت الابتعاد عنها لفعلت ، فإني كرهت كل هؤلاء الأشخـــاص الذين راحوا يحملقون في وهم وقوف خارج الكنيسة ، وقد شقت جريتا لي طريقـــاً بينهم ، ولا اظنني أدركت حتى ذلك الوقت ما تتمتع به من شخصية قوية ، ولا الى اي حد يمكن ان يعول عليها ، فقد قامت بكل التدابير الضرورية ، فأتت بباقات الورد ، ودبرت كل شيء ، فإني افهم الآن كيف كانت ايللي تعتمد عليها فليس في العالم كثيرات منها .

كان معظم الذين وجدوا في الكنيسة من جيراننا ، بل ان بعضهم كانوا ممن تعرفنا بهم ، ولكني لاحظت وجها سبق ان شاهدته ، وان كنت لم استطع معرفة صاحبه في تلك اللحظة .

وحين عدت للبيت قال لي كارسون ان هناك رجلا ينتظر في غرفة الاستقبال فقلت له :

ـ لا أستطيع مقابلة احد اليوم .. اصرفه .. ما كان لك ان تدعه يدخل .

ـ معذرة يا سيدي ، ولكنه قال لي انه قريب لك .

ـ قريب ؟

وفجأة تذكرت الرجل الذي رأيته في الكنيسة .

وناولني كارسون بطاقة لم استدل منها على شيء ما .. مستر ويليام ر. باردو . وقلبتها في يدي وانا اهز رأسي ، ثم ناولتها بدوري لجريتـــا وانا اقول :

ـ هل تعرفين من هو ؟ فإن وجهه يبدو مألوفا لي ، ولكني لا استطيع معرفته .. لعله احد معا ف زوجتي .

فأخذت جريتا البطاقة ونظرت اليها ثم قالت :

ـ انني اعرفه .
ـ من هو ؟
ـ هو الخال روبين .. هل تذكر ابن خـال ايللي . ولا ريب انها حدثتك عنه .

وعرفت عندئذ لماذا بدا وجهه مألوفاً ، فقد كانت ايللي تحتفظ في غرفة الجلوس بمجموعة من الصور لأقاربها ، ولذا بدا وجهه مألوفاً اني رأيته أكثر من مرة في إحدى تلك الصور ، وقلت :
ـ إني قادم .

وخرجت من الغرفة وذهبت إلى غرفة الاستقبال ونهض مستر باردو واقفاً وقال :
ـ مايكل روجرز ؟. ربما لا تعرف اسمي ولكن زوجتك كانت إبنـة خالي . كانت تدعوني بالخارج روبين دائماً ولكننا لم نلتق . فهذه أول مرة أقدم فيها إلى انجلترا منذ ان تزوجتما .
ـ إني أعرف من انت طبعاً .

ولا أدري تماماً كيف أصف روبين باردو ، فقد كان رجلاً طويل القامة ضخم الجسم عريض الوجه منبسط الأسارير يبدو عليه الشرود كما لو كان يفكر في شيء آخر ، ولكن ما ان تتحدث معه بضع دقائق حتى تشعر بأنه معك قلباً وقالباً ، وقال :
ـ لا حاجة بي إلى القول بأنني أصبت بأكبر صدمـة ، حين سمعت بموت ايللي .
ـ دعنا من ذلك لاني لا أريد التحدث بالموضوع .

كان يبدو رقيقاً ، ومع ذلك فقد كان ينبع منه شيء جعلني أشعر بالارتباك والضيق ، فقلت حين دخلت جريتا .
ـ هل تعرف مس جريتا ؟

– طبعاً ، كيف حالك يا جريتا ؟
– لا بأس . منذ متى وأنت في انجلترا ؟
– منذ أسبوع او أسبوعين . أطوف بالبلاد .
قلت إني رأيتك قبل اليوم .

واستطردت اقول مندفعاً فجأة :
– رأيتك منذ أيام قلائل .
– حقاً ؟ أين ؟
– في صالة المزادات ببارنتجتون مانور .
– إني أتذكر الآن .. نعم ، نعم . إني اذكر وجهك .. كنت تجلس مع رجل في نحو الستين من عمره ، له شارب أسمر .
– نعم . الميجور فيليبوت .
– كنتما في منتهى الغبطة والابتهاج
– لم أكن في حياتي أسعد مما كنت في ذلك اليوم .

وعدت أقول وانا لا أزال أشعر بذلك الاحساس الغريب الذي أحسست به في ذلك اليوم :
– لم أكن في حياتي أسعد مما كنت حقاً .
– لم تكن في ذلك الوقت قد عرفت ما حدث طبعاً . كان ذلك في اليوم الذي وقع فيه الحادث ، اليس كذلك ؟
– كنا نتوقع ان تلحق ايللي بنا لتناول الغداء .

قال الخال روبين :
– يا المأساة ! . يا المأساة !
– لم أكن أعرف انك في انجلترا ، ولا أظن ان ايللي كانت تعرف ذلك هي الأخرى .
فأمسكت عن الكلام بانتظار رده فقال :

– كلا ، لم أكتب اليها بذلك . والحق إني لم أعرف إلى متى سأبقى هنا ، ولكني فرغت من عملي مبكراً على غير ما كنت أتوقع ، وكنت أتساءل بعد المزاد إذا كان وقتي يسمح لي بزيارتكما .

– هل جئت من الولايات المتحدة لأجل العمل ؟

– حسناً ، نعم ولا ، أرادت كورا نصيحتي في نقطة أو نقطتين ، إحداهما تتعلق بالمنزل الذي نفكر في شرائه .

وكان ان اخبرني في تلك المناسبة ان كورا بانجلترا فعدت أقول :

– لم نكن نعرف حتى هذا .

– لم تكن تقيم في ذلك اليوم بعيداً عنكما .

– لم تكن بعيداً عنا ؟. هل كانت في الفندق .

– كلا ، بل كانت تقيم مع صديقة .

– لم أكن أدري ان لها صديقة في هذا الجزء من العالم .

– صديقة اسمها .. ترى ما اسمها ؟. هارد . هارد كاسل .

صحت أقول مشدوهاً :

– كلوديا هارد كاسل !

– نعم ، كانت صديقة لكورا ، وكانت كورا تعرفها منذ ان كانت في الولايات المتحدة ، الم تكن تعرف ؟

– إني أعرف القليل .. القليل جداً عن العائلة .

ونظرت إلى جريتا :

– هل كنت تعلمين ان كورا تعرف كلوديا هارد كاسل ؟

ردت جريتا :

– لا أظنني سمعتها تتحدث عنها .. هذا هو السبب إذن في ان كلوديا لم تأت في ذلك اليوم .

– طبعاً . كانت تنوي الذهاب معك إلى لندن بالقطار .. وكنت ستلتقين

بها في محطة ماركيت شارويل !

— نعم ، لكنها لم تأت . اتصلت بي تليفونياً قبل ان أخرج وقالت ان زائرة أميركية أقبلت فجأة وانها لا تستطيع مغادرة البيت .

— اني اتساءل اذا لم تكن كورا هي تلك الزائرة ؟

قال روبين باردو :

— هذا شيء واضح .

ثم هز رأسه واستطرد :

— إن الأمر يبدو مضطرباً .. اظن ان التحقيق قد أجل .

قلت :

— نعم .

القى كأسه ونهض واقفاً وقال :

— لن أزعجكما اكثر من ذلك . إذا كان هناك ما استطيع عمله فإني مقيم في فندق ماجستيك بماركيت شارويل .

— إني أخشى انه ليس هناك ما يستطيع عمله .

فانصرف روبين باردو وقالت جريتا :

— إني اتساءل ماذا يريد ، ولماذا أقبل ؟

ثم استطردت في حدة :

— وددت لو يعودوا جميعاً من حيث جاءوا .

الفصل العشرون

لم يعد هناك ما يدعوني للبقاء في أرض الفجر .

وبعد وصولي إلى نيويورك بأربعة أيام ، جاءتني أنباء من كينجز بيشوب ، فقد عثروا على جثة مسز لي في الحجر المهجور الواقع في طرف الجبل ، وكان موتها يرجع لأيام مضت .

وكانت قد وقعت حوادث عديدة في ذلك المكان من قبل ، وكانت هناك نية لتسويره ، وقد أصدر المحلفون قرارهم بأن الوفاة حدثت قضاء وقدراً ورفعوا رجاء المجلس القروي بسرعة تسوير المكان ، منعاً لتكرار الحوادث .

وعثروا في كوخ مسز لي على ثلاثمائة جنيه مخبأة تحت ألواح الأرضية ، وكانت كلها من فئة الجنيه الواحد .

أضاف الميجور فيليبوت حاشية يقول فيها :

« وأنا واثق انك ستشعر بالحزن حين تعلم ان كلوديا هارد كاسل وقعت من فوق جوادها أمس وانها ماتت على الفور » .

كلوديا هارد كاسل !.

لم استطع ان اصدق ذلك ، فأخذني الغثيان بصورة مريعة .. شخصان يقعان عن ظهري جواديهما ويلقيان حتفهما في أقل من اسبوع .. بدا كأن

الأمر صدفة بعيدة التصديق .

لا أريد الاسهاب في تلك الفترة التي قضيتها في نيويورك ، فقد كنت غريبا ، وكان الجو نفسه غريبا ، فأحسست خلال الوقت الذي قدرته هناك بأنه يجب توخي الحذر في كل قول وكل فعل .

إن ايللي التي أعرفها ، والتي كانت تنتمي إلي بتلك الطريقة الغريبة لم تكن هناك ، فقد رأيتها الآن ، والآن فقط فتاة اميركية ، ووريثة ثروة كبيرة يحيط بها الأصدقاء والمعارف والأقارب البعيدين ، وتنتمي إلى أسرة تعيش في اميركا منذ خمسة أجيال ، جاءت من هناك كما لو كانت صاروخا ، وزارت موطني زيارة قصيرة .

أما الآن ، وقد عادت لكي تدفن مع أسرتها ، حيث موطنها هي بالذات فقد اغتبطت لذلك ، فما كنت لأشعر بالارتياح لو انها كانت قد دفنت هناك ، في تلك المقبرة الصغيرة ، على سفح غابة الصنوبر ، خارج القرية .. كلا . ما كنت لأشعر بالارتياح أبداً

وقلت أحدث نفسي :

– عودي الى حيث تنتمين يا ايللي !

ومن حين لآخر ، كانت تلك المقطوعة الغنائية التي اعتادت ان تغنيها وهي تجري بأصابعها على قيثارتها ، تلاحقني .. وتعود إلى ذهني باستمرار :

كل صبح وكل ليل
يولد البعض للسعادة والهناء

وقلت أخاطب نفسي :

– هذا صحيح ، بالنسبة لك أنت يا ايللي ، فإنك ولدت للسعادة والهناء .. كنت سعيدة هناك ، في أراضي الغجر ، ولكن سعادتك كانت قصيرة الآن ، وعدت إلى حيث لا سعادة ولا هناء ، إلى المكان الذي

كنت بعيدة عن السعادة فيه ، ولكنك عدت إلى بيتك على كل حال ، فأنت الآن بين عشيرتك .

وتساءلت فجأة :

– أين يدفنوني حين أموت ؟. أفي أراضي الفجر ؟. هـــذا جائز .. ستأتي أمي وتراني وهم يوسـدونني التراب ، ذلك إذا لم تكن قـد ماتت قبلي ، ولكنني لم أستطع ان أتصور انني سأموت قبلها ، نعم ، إنها ستأتي وتراني وهم يهيلون علي الثرى ، ولعل قسمات وجهها تسترخي وتنبسط عندئذ وتزول عنها صرامتها .

وطرحتها من أفكاري ، فلم أشأ ان افكر فيها .. لم أشأ ان أذهب اليها او ان أراها .

ومع ذلك فإن الخطوة الأخيرة تبعد عن الحقيقة ، فما كان لي ان أذهب لكي أراها ، كانت هي التي تسعى دائماً إلى رؤيتي بعينين تسبران غوري وتستشفان أعماقي في شيء من القلق والجزع .

وفكرت ان الأمهات هن الشيطان بعينه ، لماذا يجب للأم ان تحتضن اولادها وان تهتم بهم دائماً ..

لـماذا يشعرون بأنهن يعرفن كل شيء عنهم ، في حين انهم لا يعرفن على الإطلاق ؟

كان يجب ان تفخر أمي بي ، وان تغمرها السعادة .. السعادة للحياة العجيبة التي وصلت اليها .. كان يجب .. ولكني لم البث ان طرحتها من رأسي ثانية .

كم من الوقت بقيت في الولايات المتحدة ؟ لا استطيع ان اذكر جيداً . بدا لي انني قضيت فيها عمراً طويلاً ، وانني قضيتــه في السير في حذر ، ينظر النــاس إلي ، وعلى وجوههم إبتســامات زائفة ، وفي عيــونهم عداء سافر .

وكنت اقول لنفسي كل يوم يجب ان افرغ من هذا .. ويجب ان اتم هذا .. صرت استخدم هذه الكلمات ، كما كنت استخدم من قبل كلمة اريد .. اريد ..

وراح الجميع يتزلفون إلي ويتملقونني ويعـاملونني في رفق ورقة لأنني كنت ثريا ، فقد اصبحت بمقتضى وصية ايللي رجلا واسع الثراء . وكان هذا امراً غريباً .. كنت املك استثمارات عديدة ، لا ادري عنها شيئاً .. أسهم وسندات ومحلات تجارية وعقارات مختلفة ، فلم اكن أعرف عنها شيئا البتة .

فماذا افعل بكل هذا ؟

وفي اليوم السابق لرحيلي الى انجلترا ، دار بيني وبين مستر ليبنكوت حديث طويل .

كنت أعتبره مستر ليبنكوت دائما ، ولم يخطر لي ابداً ان ادعوه بالعم أندرو ، وقلت له انني فكرت في سحب جميع استـــثماراتي ، من ستانفورد لويد .

رفع حاجبيه ونظر اليه بعينيه الحادتين ووجهه الجامد وقال :

ـ حقاً ؟

وتساءلت بيني وبين نفسي ماذا يعني بكلمة حقاً هذه .

وسألته في قلق :

ـ هل تعتقد ان من الصواب فعل هذا ؟

ـ اظن ان لديك أسباباً تدفعك لهذا ؟

ـ كلا ليس لدي أية أسباب إنما هو إحساس داخلي .. اظنني استطيع ان أصارحك بكل شيء .

ـ إن ما يدور بيننا سيبقى سراً طبعاً .

ـ حسناً .. لدي إحساس بأنه نصاب .

بدا الاهتمام على مستر ليبنكوت وقال :

– آه . نعم ، أستطيع القول ان إحساسك صحيح .

عرفت عندئذ اني كنت على صواب ، فقد كان ستانفورد لويد محتالاً يمارس النصب في جميع استثمارات ايللي ، ووقعت على تفويض شامل وأعطيته لأندرو ليبنكوت قائلا :

– هل تقبل هذا التفويض ؟

– الك ان تثق بي كل الثقة سأبذل جهدي لأرضيك في كل ما يتصل بالشؤون المالية ولا أظنك ستجد سبباً للشكوى .

وتساءلت ماذا يعني بكلماته هذه .. كان يعني شيئاً من غير شك .. اظن انه كان يريد ان يقول انه لا يميل إلي .. وإنــــه لم يشعر نحوي بأي ميل ، ولكنه سيبذل جهده على الرغم من ذلك لإرضائي ، لأنني كنت زوج ايللي .

ووقعت على الأوراق الضرورية ، وسألني عندئذ كيف سأعود لانجلترا ؟ هل سأعود بالطائرة ؟

أجبته :

– كلا .. لن أستقل الطائرة بل سأعود عن طريق البحر .

وأردفت أقول :

– إنني أريد ان اخلو لنفسي قليلاً ، واظن ان السفر بالبحر سيكون خيراً لي .

– وأين ستجعل إقامتك في انجلترا ؟

– في أراضي الغجر .

– آه ! هل تنوي الإقامة هناك ؟

– نعم .

– حسبت انك قد تعرضه للبيع .

- كلا

وخرجت الكلمة من شفتي اقوى مما كنت اريد . لن اتخلى عن اراضي الفجر .. فقد كانت جزءاً من أحلامي .. الأحلام التي ظلت تراودني منـذ كنت طفلا غراً .

- هل هناك من يعنى به اثناء إقامتك في الولايات المتحدة ؟

قلت له :

- انني تركته في عناية جريتا اندرسون .

- آه ، نعم جريتا .

كان يقصد شيئاً بالطريقة التي نطق بها اسم جريتا ، ولكني لم أعبأ به .. إذا كان يكرهها فهو يكرهها ، وقد كرهها دائماً .

وساد بيننا صمت ، ثم غيرت مجرى الحديث ، فقد شعرت بأنه لا بد لي من قول شيء فقلت :

- كانت كريمة ومخلصة جداً مع ايللي ، عنيت بها وهي مريضة .. أقبلت وأقامت معنا ، وسهرت على ايللي .. إنني لن اوفيها حقها من الشكر والامتنان ابداً .. واحب ان تفهم هذا .. لا يمكن ان تعرف كم كانت شديدة النفع لنا .. لا يمكن ان تعرف كيف ساعدتنا ، ولا كيف قامت بكل شيء بعد مصرع ايللي . وما كنت لأدري ماذا كنت فاعلا من غيرها .

قال مستر ليبنكوت :

- هكذا .. هكذا !

وكان صوته أشد جفاء من اي وقت مضى ؟!

- وهكذا ترى اني ادين لها بالكثير .

- إنها فتاة قديرة .

نهضت مودعاً فشكرته .

وقال في جفائه المعهود :

– ليس هناك ما تشكرني عليه .

وأردف يقول :

– إني كتبت لك رسالة قصيرة وارسلتها بالطائرة إلى اراضي الفجر ، فإذا كنت عائداً بطريق البحر فستجدها هناك بانتظارك .

واستطرد :

– ارجو لك رحلة طيبة .

وكانت الرحلة طيبة حقا .

حين عدت إلى الفندق وجدت برقية تطلب مني الذهاب الى مستشفى بكاليفورنيا يخبروني فيها بأن صديقا لي اسمه رودلف سانتونيكس طلب ان يراني وانه لن يعيش طويلا ، وهو يريد ان يراني قبل ان يموت .

وغيرت موعد سفري ، وحجزت لي مكانا على باخرة اخرى واخذت الطائرة الى سان فرانسيسكو . ولم يكن رودلف قد مات ولكنه كان يخطو الى الموت بخطى واسعة . وكانوا غير واثقين من انه سيعود الى رشده قبل ان يموت ، ولكنه سأل عني كثيراً .

وجلست هناك في غرفة المستشفى انظر اليه .. أنظر إلى هيكل الرجل الذي أعرفه .. كان يبدو مريضا دائما .. كان غارقا في نوع من الشفافية والرقة والوهن . وكان يرقد الآن ، بوجهه الشاحب ، الذي يعلوه شبح الموت .

وجلست مكاني افكر واقول :

– اتمنى ان يتحدث إلي .. اتمني ان يقول لي شيئا قبل ان يموت .

شعرت بأني وحيد ، وحيد جداً .. هربت من الأعداء الآن وذهبت الى صديق .. صديقي الوحيد حقا .. كان هو الرجل الوحيد الذي يعرف عني شيئا فيما عدا امي .. ولكنني لم اكن اريد ان افكر بأمي .

خاطبت الممرضة مرة او مرتين وسألتها اذا لم يكن هناك ما استطيع عمله من اجله ، ولكنها هزت وأكتفت بالقول :

– ربما يعود الى رشده وربما لا يعود .

وجلست مكاني ، واخيراً تحرك وتنهد فرفعته الممرضة في رفق، ونظر الى ويبدو انه عرفني .

سكت فجأة وقال :

– انت ايها الأحمق المأفون .. لماذا لم تسلك الطريق الآخر ؟

ثم شهق وفاضت روحه دون ان ادرك ما كان يعني بهذه الكلمات .

الفصل الحادي والعشرون

نعم ، كنت عائداً الى بيتي ، فقد انتهى كل شيء وفرغت من المعركة الأخيرة وانتقلت الى المرحلة الأخيرة من الرحلة .

زمن شبابي القلق ولى ، وبدا لي بعيداً ، بعيداً جداً .. ذلك الزمن الذي كنت اقول فيه اريد واتمنى .. ولكنه لم يكن بعيداً مع ذلك ، فلم تمض عليه اكثر من سنة .

وتمددت فوق الفراش ، في مقصورتي ورحت استعيد الماضي .. لقائي بايللي .. ومقابلاتنا في ريجنتس بارك ، وزواجنا في مكتب التوثيق .. والمنزل وسانتونيكس يقوم ببنائه .. وفراغه من ذلك . بيتي .. بيتي .. بيتي انا وحدي .. بيتي كما اردته ان يكون ، وكما تمنيت .. حصلت عليه اخيرا وهأنذا عائد اليه .

قبل ان اغادر نيويورك كتبت رسالة وارسلتها بالطائرة لكي تصل قبلي . كتبت الى فيليبوت ، فقد شعرت بأنه سيفهمني اكثر من غيره ، كان من الهين ان اكتب بدلاً من احدثه شفاهة ، ومهما يكن من امر فلا بد له ان يعرف ، ولا بد من ان يعرف الجميع .

هناك من لم يفهم طبعاً ، اما هو فقد خطر لي انه سيفهم ، وقد رأى بنفسه مدى ارتباط ايللي بحريتها ، ورأى ان ايللي كانت تعتمد على

جريتا في كل شيء . وخطر لي انه سيدرك انه لا بد لي ان اعتمد على جريتا انا ايضا ، وان من المحال ان اعيش وحدي في المنزل الذي عشت فيه انا وايللي إلا اذا كان هناك شخص آخر استطيع ان اعتمد عليه وان اركن اليه ، ولا ادري اذا كنت قد احسنت الكتابة ام لا ، ولكنني بذلت جهدي .

كتبت اليه أقول :

– أريد ان تكون اول من يعلم ، فقد كنت كريماً معي وأظن انك انت الشخص الوحيد الذي يستطيع ان يقدر موقفي . إني لا أستطيع مجرد التفكير في الإقامة وحدي في أرض الفجر . وقد فكرت طول الوقت الذي قضيته في اميركا ، واستقرت نيتي بمجرد عودتي لانجلترا ان أطلب من جريتا ان تتزوجني ، فهي الشخص الوحيد الذي استطيع ان احدثه عن ايللي، وسوف تفهمني ، لعلها لا تقبل ان تتزوجني ولكني أظنها ستفعل ، فسوف أشعر عندئذ بأننا ما زلنا نعيش نحن الثلاثة معاً .

كتبت الرسالة ثلاث مرات قبل ان ارى انها تعبر عما أريد قوله وسيستلمها فيليبوت قبل عودتي بيومين .

صعدت إلى سطح الباخرة ونحن نقترب من انجلترا ، ونظرت إلى الشاطىء وأنا أقول لنفسي :

– ليت سانتونيكس معي الآن ، وددت لو يكون معي فيرى ان كل شيء بالنسبة لي قد تحقق حقاً كما تمنيت وكما رسمت ، كل شيء ..

لم يرني احد عند وصولي إلى كنسنجتون بيشوب . كان الوقت يكاد يكون ليلا حين هبطت من القطار ، ومشيت من المحطة وسلكت الطريق الملتوية ، لأني لم أشأ ان التقي بأحد من الأهالي .. لم أشأ ان التقي بأحد منهم في تلك الليلة بالذات .

كانت الشمس قد غابت وراء الأفق حين بلغت الطريق المؤدية إلى بيت

الفجر ، وكنت قد أخبرت جريتا بالساعة التي سأصل فيها . وكانت هناك بالبيت ، في انتظاري

أخيراً إنتهت الأكاذيب والادعاءات .. إدعائي بالنفور منها ، وتذكرت الآن ، وأنا أضحك في سري ، الدور الذي قمت بـه .. ذلك الذي مثلته ببراعة منذ البداية . نفوري من جريتا ، ومعارضتي لقدومها والإقامة مع ايللي .. نعم .. إني كنت شديد الحرص والذكاء ، فقد كان لا بد ان تجوز الخدعة على الجميع . وتذكرت الشجار الذي تناهى إلى سمع ايللي .

عرفتني جريتا على حقيقتي منذ ان التقينا لأول مرة لم يشعر أي منا بـأي وهم كاذب فيما يتعلق بالآخر . كانت لها نفس أفكاري ، ونفس أملي .

لم أخف طموحي عنها ، فقد كان لها نفس الطموح هي الأخرى . وقالت :

– كي تحصل على كل ما تريد من الحياة فلا بد لك من المال

– أعلم ذلك ولا أرى كيف أستطيع الحصول عليه .

– كلا .. ليس عن طريق العمل الشاق على كل حال ، فأنت لم تخلق للعمل

– العمل .. يجب ان أشقى وان أعمل السنين الطوال ، ولا اريد أن أصبر حتى خريف عمري . أريد ان تتحقق أحلامي الآن ، وانا لا أزال شاباً قوياً . ولعلك تريدين ذلك انت ايضاً أليس كذلك ؟

– نعم ، وإني اعرف الوسيلة التي تمكنك من الحصول على المال .. وهي وسيلة سهلة ، ويدهشني انك لم تفكر فيها قبل الآن. إنك تدير رؤوس الفتيات بسهولة ، ألا تعرف ذلك ؟

– وهل تظنينني أهتم بالفتيـات ، او إني اهتممت بهن في أي وقت من

الأوقات . إن هناك فتاة واحدة أريدها ، وهي انت . وانت تعرفين ذلك ، فإني احبك ، وعرفت اني احبك حين رأيتك ، وكنت أعرف دائماً اني سألتقي بفتاة مثلك .. إني احبك .

فقالت جريتا :

– نعم ، اظنك تحبني حقاً .

– وكل منا يطلب من الحياة نفس الأماني .

– اقول لك ان الأمر يسير عليك .. يسـير جداً .. كل ما عليك هو ان تتزوج بفتاة غنية .. بفتاة من أغنى الفتيات في العالم ، ويمكنني ان أدبر هذا الأمر .

– لا تكوني حمقاء .

– أنا لست حمقاء .. أقول لك ان الأمر سيكون يسيراً .

– كلا ، هذا لا يناسبني ، فلا اريد ان أغدو زوجاً لامرأة غنية تشتري لي ما احتاج اليه وتوفر لي كل شيء ، وتحتفظ بي في قفص من ذهب ليس هذا ما أريد . لا أريد ان أكون عبداً لامرأة .

– لن تكون عبداً . لأن هذا لن يطول .. لن يطول إلا بما لا بد منه ، فإن الزوجات تموت كما تعلم .

حدقت فيها مذهولاً فقالت :

– هل صدمت شعورك ؟

– كلا .

– كنت اعرف ذلك . وقد خطر لي انك ربما ..

ونظرت إلي في تساؤل ودهشـــة ، ولكنني حرصت على ألا أرضي فضولها ، فقد كنت لا أزال أضن عليها بمكنونات قلبي وخفـــايا نفسي ، وليس ذلك لأنها أسرار لا احب ان أفشيها فحسب ، وإنمـا لأني لم اكن أريد مجرد التفكير فيها . بل لم أكن اريد التفكير في أول هذه الأسرار

بالذات ، وهو سر صبياني سخيف ، لا يعنيني من أمره شيء الآن ، فقد رأيت في معصم احد زملائي بالفصل ساعة جميلة تمنيت الحصول عليها بكل وسيلة ، فقد كانت ساعة ثمينة تساوي مبلغاً كبيراً من المال ، وكان أبوه الثري قد أهداه إياها بمناسبة عيد ميلاده .

نعم ، أردت الحصول عليها ، ولكني لم أدر كيف افعل ، إلى ان اقبل يوم ذهبنا فيه للتزحلق سوية ، ولم تكن طبقة الجليد من القوة بحيث تحتمل ثقله . فتحطمت فجأة ووقع في حفرة من الماء وتشبث بسطح الجليد الذي أخذ يمزق أصابعه .

فأسرعت اليه وانحنيت كي اجتذبه حين وقعت عيناي على الساعة في رسغه فقلت احدث نفسي :

– ماذا لو أدفع به تحت الماء ؟

وكان ذلك من اسهل الأمور .

تم الأمر على غير وعي مني ، فخلعت الاسوارة من رسغه ودفعت برأسه تحت الماء بدلاً من سحبه للخارج ، فلم يتمكن من النضال كثيراً لأنه كان تحت الثلج .

ورآنا الناس من بعيد فأسرعوا الينا واخرجوه في شيء من الصعوبة ، وحاولوا إنقاذه بطريقة التنفس الصناعي ، ولكنه كان قد مات . فأخفيت كنزي في مكان أمين مع بعض الأشياء الأخرى .

ولم اكن اريد ان تراها أمي لأنها ستسألني عن مصدرهـــا ، ولكنها عثرت عليها ذات يوم ، هي وبعض الجوارب الخاصة به ، فسألتني اليست هذه ساعة « بيت » ، فأجبتها بالنفي طبعاً ، وقلت لها انني قايضت زميلا لي عليها .

كنت اشعر بالقلق دائماً مع امي فطالما احسست بأنها تعلم عني الكثير ، وتملكني القلق حين عثرت على الساعة ، واحسب انها ارتابت في الأمر ، ولم

يكن باستطاعتها ان تعرف طبعاً . بل ان احداً لم يعلم بشيء ، ولكنها اخذت تنظر إلي بطريقة غريبة ، فقد حسب الجميع إني حاولت إنقاذ صاحبي ولا أعتقد انها شاركتهم هذا الاعتقاد .

وفيما بعد ، وأنا في المعسكر أقوم بخدمتي العسكرية ، ذهبت وصديق لي يدعى « إد » إلى أحد أندية الميسر . وجانبني الحظ في تلك الليلة ففقدت كل ما معي من نقود فانتقلت لجيب اد فاستبدل فيشاته ، واخذنا طريق العودة أنا وهو معاً وجيوبه محشوة بالمال .

وفاجأنا شقيان حين بلغنا مكاناً منعزلاً وهاجمانا بخنجريهما ، فأصابتني طعنة في ذراعي ، ولكن اد أصيب بطعنة في صدره أغمي عليه على أثرها ثم تناهى إلى سمعينا صوت أناس قادمين فلاذ الرجلان بالهرب على الفور ، ورأيت الفرصة سانحة ، وإني استطيع انتهازها فأسرعت بالعمل . ولففت يدي بمنديل فأخذت الخنجر من صدر اد وطعنته طعنتين نجلاوين ، فأرسل حشرجة وفاضت روحه .

تملكني الخوف طبعاً . لحظة عابرة ثم ادركت اني ساكون على ما يرام وقلت لنفسي في شيء من الزهو والفخر :
« مسكين إد فقد كان غبياً دائماً » ..

وتمكنت من نقل ما في جيوبه إلى جيوبي في دقيقـة واحدة ، إذ ليس هناك افضل من العمل السريع وانتهاز الفرصة المؤاتية .
ولكن المشكلة هي ان الفرصة لا تسنح كثيراً ، وأظن ان هناك اناساً يفزعون حين يعرفون انهم قتلوا شخصاً ولكنني لم أفزع . لا ، لم افزع في هذه المرة .

على ان هذا ليس بالشيء الذي يمكن ان تقدم عليه اكثر من مرة ، فلا بد لك ان تعرف ان الأمر يساوي ما تجـــاذف به ، ولا ادري كيف عرفت جريتا أمري ، ولكنها عرفت .. لا اقصد القول انها عرفت بارتكابي

جريمتي قتل ، ولكني اريد القـول انها عرفت ان فكرة القتل لن تصدم شعوري او تثقل ضميري .

وقلت :

– ما هذه القصة الغريبة التي تتكلمين عنها يا جريتا ؟

فأجابتني :

– إني في موقف يمكنني من مساعدتك ، يمكنني ان أعمل على ان تتعرف بفتاة من أغنى فتيات اميركا ، إني أعنى بأمرها واعيش معها ولي عليها سلطان كبير .

– هل تحسبين انها تهتم بشخص مثلي ؟

لم اصدق ذلك لحظة واحدة ، ما الذي يدفع فتاة ثرية يمكنها ان تختار من تشاء من الرجال من بيئتها للاهتمام بأمري انا ؟

قالت جريتا :

– إنك شاب وسيم وتتمتع برجـولة فائقة ، وتدير رؤوس الفتيات بسهولة

فضحكت قائلا :

– إن هذا شأن لا يد لي فيه .

– وهي لم تلتق بشاب مثلك حتى اليوم ، وقد ظل اهلها يقيمون حولها حصاراً شديداً لا يسمحون لها برؤية احد من الشبان من غير مستواها وبيئتها واعني بهم اولاد اصحاب الأعمال واصحاب الملايين ، وهم يهيئونها كي تتزوج واحد منهم ، فهم يخشون ان تلتقي ببعض الأفاقين الذين يسعون خلف ثروتها . وعليك ان تلعب بفؤادها ، وسيكون الامر يسيرا بالنسبة لك لان قلبها لم يتفتح للحب بعد .

قلت في شيء من الشك :

– استطيع ان احاول .

ردت جريتا :

- يمكننا ان ندبر ذلك .

- سوف تتدخل اسرتها وتفسد الخطة .

- لا لن يفعلوا شيئاً من هذا فهم لن يعرفوا الحقيقة إلا بعد فوات الاوان؛ اي بعد ان يتم زواجكما سرا .

- هذه فكرتك إذن ؟

ودرسنا الامر معا ووضعنا الخطط ؛ فلم تتناول كل شيء بالتفصيل في ذلك الوقت على كل حال عادت جريتا الى اميركا ولكنها ظلت على اتصالها بي ، وحدثتها عن ارض الفجر ، وقلت لها إنني اريدها . ورسمنا خططنا ودبرنا امورنا بحيث يتم لقائي مع ايللي هناك !

اوه ، نعم !. دبرنا الامر معا ، وقد كانت جريتا بارعة حقا في رسم الخطط ، واظنني كنت لا استطيع رسم اي خطة على الاطلاق ، ولكنني كنت اعلم اني سأقوم بدوري خير قيام . وهكذا دبرنا كل شيء وتم لقائي بايللي حسب الخطة الموضوعة .

وراق لي الامر .. راق لي لانه لم يخل من المخاطرة .. وكنا نخشى ان يقع ما ليس في الحسبان !

وكانت اللحظات الحرجة هي تلك التي التقيت فيها بايللي لاول مرة ، فقد عشتها على اعصابي ، إذ كان لا بد لي من ان احرص على ألا يفتضح أمري انا وجريتا . وحاولت عدم النظر إلى هذه الأخيرة ، وألا أبدي أي اهتمام . فاتفقنا على ان اسلم شيء هو ان أنفر منها وان ادعي إني أغار منها ، وقد قمت بدوري خير قيام .

وأذكر اليوم الذي أقبلت فيه لكي تقيم معنا ، ودبرنا شجاراً تسمعه ايللي ولا أدري إذا كنا قد بالغنا في هذا الدور ، ولكني لا أعتقد ذلك كنت أخشى في بعض الأحيان ان تخمن ايللي شيئاً ، غير اني لا أظن ان هذا

قد حدث .. لا أدري . لا أدري حقاً .. فلم استطع ابداً ان افهم ايللي على حقيقتها .

لم يكن من العسير علي ان أتظاهر بمظهر الحب الخالص لزوجته ، فقد كانت ، هي نفسها مخلوقة رقيقة .. رقيقة جداً .. ومع ذلك فقد كنت أخشاها لأنها كانت تقدم على أشياء لا تطلعني عليها ، وكانت تعرف أشياء لم يخطر لي انها تعرفها ، لكنها كانت تحبني ، نعم ، كانت تحبني .. وكنت أظن احياناً اني أحبها انا الآخر .

ولكني لا أقصد انها كانت تشبه جريتا ، فقد كانت جريتا هي المرأة تملك حواسي وتشد مشاعري ، فقد كانت صارخة الأنوثة ، وكنت مفتوناً بها ، وكان لا بد لي ان املك نفسي .. وكانت ايللي تختلف عنها . نعم ، إن الأمر لهو غريباً الآن وانا أفكر في كل ذلك من جديد ، فقد طابت لي العيشة معها لأبعد الحدود .

وإني أسجل كل ذلك الآن ، لأن هـــذه هي الأفكار التي كانت تدور برأسي وانا عائد الآن من اميركا . وانا اعود إلى قمة الدنيا ، بعد ان حصلت على كل شيء . على الرغم من كل المجازفـات ، وعلى الرغم من كل الأخطار ، وعلى الرغم من اني أقدمت على جريمة قتل لم يتطرق لأحد اي شك بخصوصها .

نعم ، كانت جريمة قتل كاملة مثالية ، لن يستطيع احد ان يكتشفها وقد ولت المجازفات الآن ، وولت الأخطار ، وانا الآن عائد الى أرض الغجر ، سالكاً نفس الطريق الذي سلكته ، بعد ان رأيت إعلان البيع بالمزاد وذهبت لرؤية البيت المتداعي ، فانتهيت إلى آخر الطريق واشرفت على المنحنى .

وعندئذ فقط رأيتها .. أعني ايللي .. في ذلك المكان الخطر التي وقعت فيه الحوادث .. كانت واقفة هناك ، في ظل شجرة الشوح .. في ذلك المكان

الذي جفلت فيه ، كما جفلت انا ايضاً ، حين التقينـا اول مرة ، وحين دنوت منها ، وتكلمت معهـا ، وقمت بدور الشاب ، الذي يقع في الحب فجأة ..

نعم .. قمت بذلك الدور ببراعـة . اوه .. الم اقل لكم ، انني ممثل قدير ؟

ولكني لم اتوقع رؤيتها الآن .. ما كنت استطيع رؤيتها بعد الذي حدث لها ولكني رأيتها .. كانت تنظر إلي .. ولكن كان هناك ما افزعني .. كنت اعلم انها لا يمكن ان تكون هناك لانها ماتت وواريت التراب في المقبرة بأميركا ولكنها مع ذلك كانت واقفة امامي في ظل شجرة الشوح ، تنظر إلي كما لو كانت تتوقع رؤيتي .. وقسماتها تنطق بالحب .. نفس الحب الذي رأيته ذات يوم .. ذلك اليوم الذي كانت تجري فيه بأناملها على اوتار القيثارة . ذلك اليوم الذي قالت فيه :

« فيم تفكر ؟ »

فأجبتها :

« لماذا تسأليني ؟ »

فردت :

« لأنك تنظر إلي كما لو كنت تحبني ! »

فأجبتها قائلاً :

« إني احبك طبعاً ! ».

وتسمرت في مكاني .. تسمرت في عرض الطريق ، فأخذت ارتجف وهتفت قائلاً بصوت مسموع :

– ايللي !

لم تتحرك ، بل ظلت واقفة مكانها تنتظر ، وهذا ما افزعني بالذات لاني ادركت اني إن فكرت لحظة واحدة فسأعرف لماذا لا تراني ، ومـا اردت

ان اعرف ، كانت تنظر ملياً إلى المكان الذي اقف فيه من غير ان تراني .. وعندئذ جريت ، وقطعت بقية الطريق ، فلم اقف كي استرد انفاسي إلا حين رأيت الانوار تتلألأ في بيتي .

كان هذا البيت هو بغيتي وغايتي .. عدت إلى بيتي وإلى الاشياء الاخرى التي تمنيتها اكثر من اي شيء آخر في الدنيا .. إلى المرأة الرائعة التي تسيطر على قلبا وقالبا ، سوف نتزوج الآن ، ونقيم في البيت فقد حصلنا على كل ما نريد ونجحنا .

ولم يكن الباب مقفلا بالمزلاج ، فانفتح حين دفعته . ومسحت قدمي ومضيت إلى غرفة المكتبة .

وهناك كانت جريتا واقفة امام النافذة تنتظرني .. كانت رائعة ، بل اروع واجمل فتاة وقع عليها بصري ، كانت تتدفق حيوية وتنطق بالانوثة ، وكنت مشوقا بلقائها ، فارتميت في احضانها ، كالبحار الذي يعود من البحر إلى بيته ، بعد طول غياب ..

نعم ، كانت لحظة من اجمل لحظات حياتي .

* * *

ولم نلبث ان هبطنا إلى الارض ، وجلست ودفعت إلي بتل من الرسائل ، وبحركة اوتوماتيكية اخترت بينها رسالة عليها طابع اميركي ، كانت هي الرسالة التي أرسلها إلي ليبنكوت عن طريق الجو ، وتساءلت :

— ماذا تراه كتب إلي في الرسالة ؟

فردت جريتا وهي ترسل تنهيدة عميقة تدل على الارتياح :

— حسنا ، إننا نجحنا !

– النصر لنا !

وضحكنا معا .. ضحكنا من قلب خلي ، وكانت هناك زجاجة من الشمبانيا على الطاولة ، ففتحتها وشربنـــا نخب حبنا ، وقلت وانا اردد البصر حولي

– هذا المكان رائع .. انه أجمل مما اذكر .. إن سانتونكس .. ولكنني لم اقل لك انه قد مات .

فردت جريتا :

– اوه .. هذا شيء يرثى له .. اذن فقد كان مريضا حقا ؟

– كان مريضا حقا وإن كنت لم اشأ تصديق ذلك .. اني ذهبت لزيارته وهو على فراش الموت .

سرت رعشة في بدن جريتا وقالت :

– ما كنت لاحب ان تقوم بمثل هـذه الزيارة .. هل قـال لك شيئا ؟

– لم يقل شيئا ذا معنى .. قال إني ملعون .. كان يجب عـلي ان اسلك الطريق الآخر .

– ماذا يعني ؟ اي طريق آخر ؟

– لا ادري ما الذي كان يعنيه . أظنه كان يهذي وإنه لم يكن يدري ما يقول .

قالت جريتا :

– حسنا ، إن هذا البيت نصب رائع يخلد ذكراه .. اظن اننا سنحتفظ به اليس كذلك ؟

نظرت اليها مشدوها وقلت ·

– هل تعتقدين اني سأقيم في مكان آخر .

– ولكننا لا نستطيع البقاء هنا طول الوقت .. اعني على مر السنة ، وان

ندفن نفسينا هنا ، في هذه القرية .

– ولكن المكان الذي اريد الاقامة فيه .. اردت دائماً ان اعيش هنا ..

– نعم ، طبعا، ولكن لا تنس يا مايك اننا اصبحنا نملك ما نريد من مال، ونحن نستطيع الذهاب إلى كل مكان ، نستطيع ان نطوف العالم .. نستطيع ان نمضي إلى افريقيا .. سنعيش حياة كلها مغامرات .. وأن نذهب إلى الأماكن المثيرة . سنذهب إلى فيتنام . ألا يروق لك أن نحيا حياة كلها مغامرات .

– حسناً ، أظن ذلك .. ولكننا سنعود دائماً هنا أليس كذلك ؟

خامرني فجأة إحساس غريب ، إحساس بأن الأمور لا تجري كما اريد ، فأنا لم يكن لي غير امنيتين ، وهما بيتي وجريتا . لم اكن اريد شيئاً آخر غيرهما ، لكن جريتا تريد شيئاً آخر . بل هي قد بدأت الآن . وسوف تريد أشياء أخرى ، بدأت اشعر بأنها تستطيع الحصول على ما تريد، وقد ازعجني هذا أيما إزعاج

– ما الخبر يا مايك ؟ انت ترتعش . هل اصبت بنزلة برد ؟

– ليس الأمر كذلك .

– ما الذي حدث إذن يا مايك .

– إني رأيت ايللي .

– ماذا تعني انك رأيت ايللي ؟

– حين أشرفت على آخر الطريق ، وانعطفت مع المنحنى رأيتها واقفة في ظل شجرة الشوح تنظر إلي .. تنظر نحوي .

فأجفلت جريتا وقالت :

– لا تكن أحمق ، فقد تهيأ لك .

– ربما تتهيأ للمرء أمور ، ومهما يكن فنحن في اراضي الغجر، كانت ايللي

واقفة . كانت تبدو سعيدة .. كما كانت دائماً .

فأمسكتني جريتا من كتفي وهزتني قائلة :
- مايك . لا تتكلم هكذا يا مايك .. هل تناولت شراباً قبل ان تأتي ؟
- كلا ، آثرت الانتظار حتى نجتمع فنشرب سوية . كنت اعرف انك أعددت زجاجة من الشمبانيا .
- حسناً ، فلننس ايللي ولنشرب نخب مستقبلنا .

فقلت في إصرار وعناد :
- كانت هي ايللي !
- لم تكن ايللي بكل تأكيد .. كان وهماً صوره لك الضوء ، او ما أشبه !
- كانت ايللي ، وكانت واقفة هناك .. كانت تنظر إلى ، ولكنها لم ترني ، لم يكن في مقدورها ان تراني يا جريتا .

فارتفع صوتي وانا أقول مستطرداً :
- انا أعرف لماذا .. أعرف لماذا لم يكن في مقدورها ذلك .
حينئذ تكلمت في صوت خافت لأول مرة :
- لأني لم اكن موجوداً .. لم اكن هناك .. لم يكن في مقدورها ان ترى غير الليل الطويل الذي لا ينتهي .

ثم استأنفت أقول بصوت مرتفع متهدج من الذعر والانفعال :
- يولد بعضهم للسعادة والهناء ، ويولد البعض الآخر لليل طويل الشقاء .. هل تذكرين كيف كانت أناملها تجري على القيثارة وهي تشدو بصوتها الرقيق : كل ليل وكل صبح يولد بعضهم للهناء ، وكل صبح وكل ليل يولد بعضهم للشقاء .. هي ايللي التي ولدت للسعادة والهناء ، أما انا فما ولدت إلا ولدت إلا للتعاسة والشقاء .. كانت امي تعرف ذلك ، وكذلك سانتونيكس . كان يعرف هو .

الآخر إنني أسلك طريق الشر . كان في مقدوري العيش سعيداً ، والبقاء سعيداً مع ايللي .

فقالت جريتا :

– كلا .. ما كان في مقدورك ، فلم اكن اعتقد انك من هذا الطراز من الرجال الذين يفقدون جأشهم يا مايك .

وهزتني من كتفي مرة اخرى قائلة :

– عش في الواقع ودعك من الأوهام !

حملقت فيها قائلاً :

– إني آسف يا جريتا ماذا قلت لك ؟

– لا ريب إنك واجهت محنة كبيرة في الولايات المتحدة ؟. ولكنك كنت فوق المستوى ، اليس كذلك ؟. أعني انك تغلبت عليهم . وان كل شيء الآن على ما يرام .

– نعم ، كل شيء على ما يرام ، ومستقبلنا مضمون .. مستقبلنا العظيم الرائع .

– انك تتكلم بطريقة غريبة .. ترى ، مـاذا يقول ليبنكوت في رسالته هذه ؟ .

تناولت الرسالة وفضضتها لم يكن بداخلها شيء فيما عدا قصاصة من الورق اقتطعت من جريدة قديمة . قصاصة استحال لونها إلى اللون الأصفر ، نظرت اليها في ذهول ، فقد رأيت صورة شارع سرعان ما عرفته . كان أحد شوارع مدينة هامبورج يسير فيه شاب وفتاة وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر ، صورتي أنا وجريتا ..

كان ليبنكوت يعرف إذن ! كان يعلم اني اعرف جريتا إذن ، وإني اذكر الان سؤاله لي عما إن كنت قد التقيت بجريتا اندرسون قبل ذلك . وقد أنكرت الأمر طبعاً ، ولا ريب انـه بدأ يشك في امري ، من تلك

اللحظة بالذات .

تملكني الخوف من ايبنكوت فجأة ، لا يمكن ان يخامره الشك في انني قتلت ايللي . ولكنه كان يشك في شيء مع ذلك .

فقلت مخاطباً جريتا :

– إصغي إلي ، إنه يعلم ان كلا منا كان يعرف الاخر .. وهو يعلم ذلك منذ زمن طويل طالما كرهت هذا الثعلب العجوز، وهو يكرهك كل الكراهية وحين يعلم اننا سنتزوج سيشك في أمرنا .

ولكنني ما كدت انطق بكلماتي الأخيرة حتى عرفت ان ليبنكوت قد داخله الشك حتماً في اننا سنتزوج ، انا وجريتا وانه يعرف اننا كنا نعرف بعضنا بعضاً ، ولعله كان يشك في اننا عاشقين .

– مايك .. لا تكن جباناً رعديداً . إنني أعجبت بك .. أعجبت بك دائماً .. ولكنك ترتعش الان وتتهاوى .. انك تخشى كل شخص .

– لا تقولي هذا .

– اني اقول الحقيقة

– ليل طويل لا ينتهي

لم أستطع التفكير في أي شيء آخر ، كنت لا ازال اتساءل عن معنى هذا .. ليل طويل لا ينتهي .

واطرقت برأسي وانا أقول :

– الليل الطويل الذي لا آخر له .

فصاحت جريتا :

– كف عن هذا القول ، واسترد جأشك .. وكن رجلا يا مايك ، دعك من هذه الخرافة السخيفة .

– لا حيلة لي . انني بعت روحي لأرافق الفجر .. لم تكن اراضي الفجر آمنة ابداً .. لم تكن آمنة ابداً لأي احد .. كانت امنـــة

بالنسبة لايللي ، ولكنها لم تكن كذلك بالنسبة لي ، ولعلها ليست آمنة بالنسبة لك .

– ماذا تعني ؟

نهضت واقفاً وسرت نحوها . إنني أحببتها . نعم ، ومـــا زلت أحبهـــا ، وأحس من ناحيتها بنفس الشوق والرغبة ، ولكن ما الحب ، وما البغضاء ، وما الاشتهاء ؟. أليست كلها شيئاً واحداً .. ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة !.

ما كان في استطاعتي ان أبغض ايللي ، ولكنني كرهت جريتا ، وقد استمتعت بكراهيتي لها .. كرهتها من سويداء قلبي ، وشعرت بلذة كبيرة لإحساسي هذا ، ولم استطع ان أنتظر وسائل الأمان .. لم أشأ إنتظار هذه الوسائل ..

ازددت دنواً منها وقلت :

– أيتها العاهرة القذرة .. أيتها العاهرة البغيضة . الرائعة الشقراء .. إنك لست في امان يا جريتا .. لست في أمـــان معي .. هل تفهمين ؟. إنني تعلمت الاستمتاع بالليل .. قتل الناس .. أحسست باستمتاع كبير في اليوم الذي عرفت فيه ان ايللي خرجت على صهـوة جوادها لتلاقي الموت .. ولكنني لم أقتلها بيدي ، والأمر الان مختلف فإنني أريد اكثر من معرفتي بأن شخصاً سيلاقي الموت بسبب قرص أعطي له مع طعام الافطار أريد ان أستخدم يدي .

إستولى الخوف على جريتـــا عندئذ .. هي التي أحببتها أكثر من أي شخص آخر ، منذ ان التقيت بها ، في ذلك اليوم ، في هامبورج ، والتي من أجلها تخليت عن عمـــلي ، وتظاهرت بالمرض ، لكي أبقى معها هناك ..

نعم ! أحببتها كل الحب ، ولكنني لم أعد أشعر بأي حب لها الان ..

فقد استرددت نفسي .. وانتقلت إلى مملكة اخرى غير تلك التي طالما حلمت بها .

إستولى الخوف عليها ، وطاب لي ان أراهـا خائفة هكذا ، فأطبقت بيدي على عنقها ، نعم ، وحتى الان ، وانا جالس في مكاني هذا أسجل كل شيء مر بي « وبهذه المناسبة احس بسعادة وأنا أقوم بذلك » .. أسجل كل شيء مر بي .. الأحداث ، والأحاسيس والفشل .. نعم .. كنت جد سعيد وأنا أقتل جريتا .

الفصل الثاني والعشرون

ليس هناك ما يستحق الذكر بعد ذلك حقا ، فقد بلغت القصة الذروة ، وأظن ان المرء ينسى احيانا إن ما يأتي بعد ذلك لا يمكن ان يكون خيراً ، وانه قد حصل على كل شيء ، وقد بقيت جالسا في تلك الغرفة مدة طويلة ، ولا أدري متى اقبلوا ، او إذا كانوا قد أقبلوا أفرادى أم دفعة واحدة ، غير اني اعلم أنهم ما كانوا موجودين منذ البداية وإلا لحالوا بيني وبين قتلي لجريتا !.

إلا انني لاحظت ان الميجور فيليبوت قد أتى قبلهم .. فقد أحببت هذا الرجل دائما ، فقد كان كريما .. كريما جداً وعادلاً ، يبذل عصارة نفسه لغيره .

ولا أدري ماذا اكتشف فيليبوت عني ، ولكنني أذكر نظرته الغريبة التي رماني بها في ذلك الصباح في صالة المزادات ، حين قال لي ان احساسي معناه نذير شؤم . واني لأعجب ما الذي جعله ينطق بمثل هذا القول .

ثم ، حين كنا هناك ، واكتشفنا جثة ايللي بعد سقوطها من فوق جوادها ، وانني أتساءل هل خطر له ، في ذلك الحين ، ان لي يداً في ذلك .

وكما سبق لي القول ، ظللت جالسا مكاني بعد موت جريتا ، أنظر الى كأس الشمبانيا ، وكان فارغا .. كان هناك مصباح واحد يضيء الغرفة ، أضأته انا وجريتا في أحد الأركان ، ولكن نوره كان ضعيفا ، وكانت الشمس قد غابت منذ زمن طويل ، فبقيت مكاني وانا أتساءل في شيء من الغباء ما الذي سيقع بعد ذلك ؟

وأظن ان القوم بدأوا يأتون بعد ذلك ، ولعلهم أتوا جماعة ، وفي نفس الحين ، وقد أقبلوا في سكون وهدوء ، او لعلني فقدت حاستي السمع والنظر في ذلك الحين .

وبعد فترة لاحظت وجود الدكتور شو وكان هادئاً لا تصدر منه أي حركة .

كان يجلس بجواري ينتظر شيئاً ، وبعد لحظة خطر لي انه ينتظر مني أن أتكلم فقلت له :

– إني عدت إلى بيتي .

كان هناك رجل او رجلان آخران يتحركان في مكان ما خلفي . وكان يبدو أنهما ينتظران .. ينتظران منه أن يفعل شيئاً .

وقلت :

– ان جريتا ماتت .. قتلتها . أظن ان من الأوفق نقل الجثة بعيداً ، أليس كذلك ؟

وومض وهج في هذه اللحظة .

لا ريب ان أحد رجال البوليس التقط صورة للجثة ، فأدار الدكتور شو رأسه اليه وقال يخاطبه :

– ليس الآن !

ثم تحول إلي فانحنيت اليه قائلاً :

– إني رأيت ايلي الليلة .

– حقاً ؟. أين ؟

– في الخارج ، واقفة بجوار إحدى أشجار الشوح .. كانت تقف في نفس المكان الذي رأيتها فيه لأول مرة .

فأمسكت لحظة ثم استطردت :

– ولكنها لم توني .. ما كان في مقدورها ان تراني ، لأنني لم أكن موجوداً .

وأردفت أقول بعد لحظة :

– وقد أقلقني جداً .. أزعجني جداً .

فقال الدكتور شو :

– إنك وضعت سم السيانور في ذلك القرص الذي أعطيته لايللي في ذلك الصباح .

– كان هذا لمعالجة الحساسية التي تشكو منها ، فقد كانت تتناول قرصاً قبل ان تركب جوادها دائماً ، حتى لا تعاودها الحساسية ، وقد عالجت انا وجربتا قرصاً او قرصين في « الخلوة » ، كان هذا عملا جميلا ، أليس كذلك ؟

وضحكت ، كانت ضحكة غريبة سمعتها بنفسي ، وبدت أشبه بقهقهة صغيرة ، واستطردت :

– انك فحصت كل الأدوية التي كانت تتناولها حين أتيت كي تعالج كاحلها .. الحبوب المنومة وأقراص الحساسية ، وتركتها مكانها قائلا انه لا بأس بها وانه لا خطر منها .

فقال الدكتور :

– لم يكن هناك خطر منها على الإطلاق ، فهي أقراص عادية

– كان عملا بالأحرى يدل على ذكاء خارق أليس كذلك ؟

إنك كنت ذكياً حقاً ، ولكن ليس بالقدر الكافي .

لا أدري ، كيف كان في مقـدورك ان تكتشف الحقيقـة ، بما يكفي . .

– إكتشفنا الحقيقة في اليوم الذي وقع فيه الحادث الثاني . الحادث الذي لم نتوقع حدوثه .

– كلوديا هارد كاسل ؟

– نعم ، فقد ماتت بنفس الطريقة التي ماتت بها ايللي . وقعت من فوق جوادها في الغابة ، وكانت تتمتع بصحة جيدة ولكنها وقعت هي الأخرى من فوق جوادها وماتت ولعب عنصر الوقت دوراً كبيراً في موتها ، فأسرعوا اليها على الفور ، واشتموا في الجو رائحة السيانور ، ولو انها بقيت وحدهـا ساعتين في الهواء الطلق كما بقيت ايللي لتبخر سم السيانور ، ولما اشتموا شيئاً ولما ارتبنا في شيء ، ولا أدري كيف حصلت كلوديا على القرص المسموم إلا إذا كان قد وقع منكما في « الخلوة » ، وقد كان من عادة كلوديا ان تختـلف اليها ، وقـد عثرنا على بصماتهـا هنـاك ، كما عثرنا على قداحتها .

– لا ريب اننا كنا مهملين ، انا وجريتا ، فقد كان دس السم في الأقراص أمراً عسيراً .

ثم أردفت :

– شككت إذن في ان لي يداً في موت ايللي ، اليس كذلك ؟. أنت والجميع ؟

ورددت البصر في الأشباح التي حولي ثم قلت :

– لعلكم جميعاً شككتم في ذلك ؟

– إن المرء يعرف أحياناً ، غير اني لم أدر ماذا أفعل ؟

فقلت في استنكار :

– يجب ان تلقي القبض علي

قال الدكتور شو .

– إنني لست من رجال البوليس .

– من تكون إذن ؟

– انا طبيب .

– إنني لست بحاجة إلى طبيب .

– هذه مسألة تحتاج إلى نظر .

نظرت إلى فيليبوت قائلاً :

– ماذا تفعل ؟.. هل أتيت إلى هنا لكي تحاكمني . أو لكي ترأس محاكمتي ؟.

فقال إنما انا قاض من قضاة السلام فقط ، وقد أتيت بصفتي صديقاً !

فأجفلت قائلاً :

– صديق لي !

– بل صديق لايللي .

لم أفهم ، لم يكن هناك اي معنى لكل مـا يدور حولي ، ولكن لم يسعني إلا ان أشعر بمدى أهميتي ، فكل هؤلاء القوم عنـدي أنا .. البوليس والأطباء .. وشو وفيليبوت .. مع ان هذا الأخير كثير المشاغل على طريقته ، كان الأمر كله معقداً جداً وبدأت أفقد حساب الزمن . وكنت مرهقـاً جداً ، وكان التعب يتملكني أخيراً لأقل مجهود أبذله ، وأحسست بحاجتي إلى النعاس .

كان هناك قدوم ورواح . أقبل الناس لرؤيتي .. من كل نوع رجال القانون والمحامون والأطباء ، أطباء كثيرون ، ولاحقوني كلهم بأسئلتهم ، فلم أشأ ان ارد عليهم .

وظل أحدهم يسألني إن كنت بحاجة الى شيء . وقلت له انني بحاجـة

فعلاً الى شيء واحد .. قلم حبر وكمية من الورق .. فإنني اريد ان أسجل كل ما وقع لي ، وكيف نبت كل شيء في ذهني .

أردت ان أخبرهم بمشاعري ، قد يهمهم معرفة كل شيء ، لأنني كنت مشوقـاً ، كنت شخصاً كثير الأهمية حقـاً ، وقد أقدمت على أعمال شائقة .

وحيل الأطباء . وهو طبيب واحد على كل حال . إنها فكرة لا بأس بها واستطردت أقول

ـ إنكم تأخذون أقوال المتهمين ، فلماذا لا أسجل أقوالي انا ايضاً ؟ من يدري ، لعل الجميع يقرأونني ذات يوم .

وسمحوا لي ان أكتب ، فلم اكتب قصتي دفعة واحدة ، فقد كان أقل مجهود ينهك قواي .

وكان علي بعد ذلك ان أحضر المحاكمة ، فأصررت على ان أكون أنيقـاً لأنني أردت الظهور بمظهر لائق .

وقد جاءوا بأمي كي تراني فجأة ذات يوم ، ووقفت بالباب تنظر الي . فلم يبد عليها القلق حينئذ كما كانت دائماً ، وإنما نظرت الي في حزن ، فلم نتبادل لا انا ولا هي الكثير واكتفت بالقول :

ـ إنني حاولت يا مايك .. بذلت جهدي كي تعيش في أمان ولكنني أخفقت ، كنت اخشى دائماً ان أخفق .

ـ لا بأس يا أماه ، ليست غلطتك ، فقد اخترت طريقي .

وفكرت فجأة :

ـ هذا ما قاله سانتونيكس ، هو ايضاً كان يخاف علي ، فلم يستطع أن يفعل شيء من اجلي هو الآخر . وما كان في وسع احد عمل شيء ، فيما عداي أنا ربما . لا ادري .. لست واثقاً ولكنني اتذكر من حين لآخر . اتذكر ذلك اليوم الذي قالت لي ايللي فيه :

– فيم تفكر وانت تنظر الي هكذا يا مايك ؟

– وكيف ترينني انظر اليك ؟

– انك تنظر الي كما لو انك تحبني

وأظن اني أحببتها بطريقة ما ، فقد كانت ايللي حلوة جداً ، خلقت كي تكون سعيدة .

واظن ان العلة معي هي انني اردت اشياء كثيرة دائماً واني اردت الحصول عليها بأسهل الطرق ، وبدون بذل أي مجهود .

ففي اليوم الذي ذهبت فيه الى اراضي الغجر والتقيت بايللي ، وبينما كنا نهبط المنحدر معاً قابلتنـــا استر .. في ذلك اليوم فكرت في تلك المرأة وفي إنذارها الذي وجهته الى ايللي ، وقررت ان ادفع لها كي احرضها على ما تقول لأنني ادركت انها لا تحجم عن شيء في سبيل المال ، وقد نقدتها مبلغا كبيرا بالنسبة الي ، وبدأت توجه انذاراتها لايللي ، وافزعتها ، وجعلتها تعتقد انها في خطر .

وقد خطر لي ان موت زوجتي قد يعزى الى سقطتها من فوق جوادها .. وفي ذلك اليوم ، وانا واثق من قولي هذا ، خافت استر حقا ، فأنذرت ايللي انذرتها بمغادرة اراضي الغجر وألا تبقى فيها ؛ والواقع انها انذرتها بأن تكون على حذر مني فلم افهم ذلك ولا ايللي هي الأخرى

هل كانت ايللي خائفة مني ؟ اظن انها كانت خائفة وان لم تدرك ذلك . كانت تعلم ان هناك ما يتهددها وان هناك خطرا يحوم حولها . و كان سانتونيكس يعرف الشر الكامن في نفسي تماما كما كانت امي تعرف عني ، ولعل ثلاثتهم معا كانوا يعرفون ، كانت ايللي تعرف لكنها لم تعر ذلك اهتماما ابدا ، وان هذا غريب ، واني اعلم الآن ، كنا سعيدين جدا معا .

نعم ، سعيدين جـدا ، ليتني عرفت عندئذ اننا كنا سعيدين ، انني أضعت فرصتي !

ولا ريب ان لكل منا فرصة ، اما انا فقد اوليت لها ظهري !
وانه غريب ، بل غريب جدا ان جريتنا لا تهمني اطلاقا !
وحتى بيتي الجميل لم يعد يهمني !

ايللي فقط . وايللي لن تجدني ابدا .. فقد طواني الليل .. الليل الطويل الذي لا ينتهي !

وهذه هي نهاية قصتي .

في نهاية بدايتي .. هذا ما يقوله الناس دائما .

فما معناه ؟

وأين تبدأ قصتي بالذات ؟. يجب ان احاول وافكر .

- تمت -